الفصل الثالث

«القلب الذى لا يبالى يعيش طويلاً»

شكسبير

obeikandl.com

مشاهد أمريكية

أمضيت أسابيع بمدينة «نيويورك» فى أكتوبر ٢٠٠٤م، وأريد أن أنقل للقارئ العربى بعض المشاهد التى تعكس إلى حد كبير الانطباعات التى تولدت لدىّ من هذه الرحلة السريعة، التى كان القصد منها المشاركة فى اللقاء السنوى بين الاتحاد البرلمانى الدولى والجمعية العامة للأمم المتحدة موفدًا من رئيس مجلس الشعب المصرى، حيث كان موضوع المناقشة هذا العام يدور حول «نزع السلاح»، الأمر الذى جعلنى أركز فى كلمتى مع بداية الجلسة الأولى للقاء المشترك بين البرلمانيين والدبلوماسيين على طبيعة الوضع المتدهور فى الشرق الأوسط مشيرًا إلى حجم مبيعات السلاح فى المنطقة على امتداد العقود الخمسة الأخيرة، بينما الشرق الأوسط يحتاج إلى المدارس والمستشفيات وليس إلى الدبابات والطائرات، وذكرت أن نفقات التسليح العسكرى فى العالم كله تأتى على حساب التنمية؛ إذ إن كثيرًا من الشعوب الفقيرة تقتطع من قوتها ما تشترى به معدات حربية وأسلحة عسكرية لحماية أمنها القومى الذى يتخذ أولوية لديها فى ظل الصراعات الدامية والمواجهات الساخنة، وقد أيدنى فيما قلت نائب رئيس البرلمان السورى وممثل البرلمان المغربى ورئيس الوفد البريطانى؛ لأنه على ما يبدو أن من يأخذ ناصية الحديث مبكرًا فى المؤتمرات الدولية تكون له فرصة أفضل طوال المناقشات، والآن أعود مرة أخرى إلى مشاهد أربعة بترتيب حدوثها.

المشهد الأول

عندما هبطت بى طائرة شركة «لوفتهانزا» فى مطار «جون فيتزجيرالد كيندى» قادمًا من «فرانكفورت» – حيث شاركت فى أعمال معرض الكتاب الدولى الذى كان العالم العربى هو ضيف الشرف فيه عام ٢٠٠٤م – فوجئت بصدمة لم أتوقعها، فرغم أننى أحمل جواز سفر دبلوماسى – كسفير سابق – وعليه تأشيرة دخول للولايات المتحدة الأمريكية لعدة سفرات صالحة لمدة خمس سنوات، وبرغم أننى دخلت بذات التأشيرة من قبل فإننى فوجئت بالسيدة المسئولة عن التعامل مع جوازات سفر القادمين إلى الولايات المتحدة الأمريكية تعاملنى بجفاء واضح فور تصفحها لجواز سفرى، ثم اقتادتنى إلى حجرة جانبية مليئة بمن أظن أنهم مهاجرون من بعض دول شرق إفريقيا ومنطقة «الكاريبى»، وعندما

تســاءلت فى دهشة عن سبب ما يحدث، قال لى الضابط المسئول: عليك أن تنتظر دورك حتى ننتهى من كل هؤلاء فأســقط فى يدى وشــعرت بإهانة لا مبرر لها، وطلبت منه أن أرى مســئولاً أكبر حتى أعرف تفســيرًا لما يحدث معى، وبعد نصف ساعة جاءنى مسئول يبدو أنه المشرف على مجموعة موظفى الجوازات وأشهد أنه كان رقيقًا معى للغاية، وبعد تعامل استمر لعدة دقائق مع أجهزة الكمبيوتر اعتذر لى الرجل مبررًا ما حدث بتشابه فى الأســماء، ثم فوجئت بإعطائى إقامة لمدة ســتة شــهور، بينما كنت قد طلبت منهم ثلاثة أسابيع فقط، ولحظتها تذكرت ما يعانيه عشرات الآلاف من البشر فى مطارات العالم كل يوم خصوصًا من يحملون ملامح شرق أوسطية أو سحنة عربية.

المشهد الثانى

كنت أتجول فى الشارع الخامس بمدينة «نيويورك» فرأيت متجرًا كبيرًا من عدة طوابق يبــدو متخصصًا فى التحــف القديمة فدخلته من قبيل الفضول والتســلية، ثم فوجئت أن مالكيــه مصريان أحدهما مســلم والثانــى يهودى ترك مصر فى نهاية عــام ١٩٥٦م، ولقد اكتشــفت أن الشــريكين يملكان هذا المحل معًا منذ ثمانية وثلاثين عامًا، وأدهشنى كثيرًا عمق الثقة المتبادلة ومتانة العلاقة بينهما، فالمصرى اليهودى ما زال يعشق مصر إلى حد الهوس ويأتى لزيارتها بين حين وآخر ويتولى إدارة المتجر فى غياب شريكه لأداء فريضة الحج أو الســفر للعمرة، ولقد ذكرا لى أنهما يتناقشــان فى السياســة طوال اليوم وينتقدان التطرف على الجانبين ولكن لا يســتغنى أحدهما عن الآخر، كما شــعرت بأجواء المحبة والــود بين كل العاملين مع اختلاف دياناتهــم.. وآمنت لحظتها عن يقين أن مصر كانت دائمًا هى مصدر التسامح وملتقى الديانات ورافضة التعصب، يتعلق بها أبناؤها أينما ذهبوا وتغلــب وطنيتهــم على غيرها لأنهــم يؤمنون بأن الدين لله والوطــن للجميع، إنها تجربة للتعايش الإنســانى تستحق التأمل وتستدعى الاهتمام وتدفع نحو أمل البشرية فى استقرار عادل يجمع ولا يفرق، يوحد ولا يشتت.

المشهد الثالث

حضرت إفطارًا رمضانيًا ضخمًا بأحد مساجد منطقة «جيرسى» بترتيب من القنصل العام المصرى ومســاعده، ولقد حضر الإفطار عدد ضخم من رجال وســيدات الجالية الإسلامية

الأمريكيـــة، كما حضره عدد من رجال الدين المســيحى ورجال الدين اليهودى فضلاً عن بعض أعضاء الكونجرس بمجلســيه ممن يمثلون تلك المنطقة، وعدد من القضاة الأمريكيين ومســئولى الإدارة ورجال الأعمال، ولقد ألقيت كلمة فى ذلك الحشد الضخم حول التسامح الدينـــى والصلات الروحية والحضارية بين أتباع الديانات الإبراهيمية الثلاث، ولقد شـــد انتباهى شيوع روح واضحة من الألفة الشديدة والصداقة القوية التى تربط الجميع، ورأيت كيف أن المساجد مفتوحة على مصراعيها فى رمضان وأضواؤها تسطع وهى تحتوى مئات المســلمين الذين يؤدون صلاة «التراويح» كل ليلة، لذلك فإننى أرى أن المواجهة الحقيقية ليســت بين الإسلام والغرب ولكنها بين الاعتدال والتطرف، بين التسامح والتعصب، بين الانفتاح والانغلاق بغض النظر عن الديانات والأعراق والقوميات.

المشهد الرابع

التقيت الأســقف «ديفيد» كبير رجال الكنيســة القبطية فى «نيويورك» وربما فى أمريكا الشــمالية كلها وذلك أثناء الإفطار الرمضانى الذى أشــرت إليه فى المشهد السابق، وكان مشــغولاً بالإعداد لإفطار الوحدة الوطنية، وهى مبادرة بدأها قداسة البابا «شنودة» فى كل الكنائــس القبطية فى الداخل والخارج منذ منتصــف الثمانينيات من القرن الماضى، ولقد دعانى الأســقف «ديفيد» لزيارة المقر البابوى القبطى فى «نيويورك»، وهى مجموعة مبان رائعة على ربوة عالية تضم كنيســة وناديا ومكتبة، ولقد كانت حفاوة الأشــقاء الأقباط بنا كبيــرة كما كان كرمهم زائدًا، وشــعرت بروح الوحدة الوطنية تطــل من عيونهم وتبدو من كلماتهم، وتتأكد من تصرفاتهم حيث الوطن المشترك يبدو فى الغربة وكأنه هاجس يستقر فى الوجدان وشــعور يتعمق فى النفوس، بل إننى ســمعت عن جمعية إسلامية قبطية فى «نيويورك» تملك إمكانات مالية كبيرة وصلاحيات واسعة لتعزيز الشعور الوطنى والدفاع عن القضايا العادلة لأمتنا العربية وشعبها المصرى.

.. هذه مشاهد سريعة أهدف من ذكرها نقل صورة حية لما رأيت فى تلك الرحلة التى خرجت منها باستنتاجات واضحة فى ظل ضجيج الانتخابات الرئاسية الأمريكية، حيث رأى كثير من الأمريكيين أن المرشح الديمقراطى «جون كيرى» كانت لديه الفرصة لولا أنه لم يتمكن من مخاطبة الشعب الأمريكى بالطريقة التى يريدها فى هذه الظروف التى تواصل فيها «واشنطن» حربها على الإرهاب ويستمر تورطها فى العراق وينعدم دورها فى فلسطين،

ولقد كان الأمريكيون يقولون صراحة أن «جون كيرى» محدث أفضل ولكنهم سوف يصوتون للرئيس «جورج دبليو بوش» حتى يستكمل المهمة التى بدأها وينتزع المخاوف التى زرعها، كما كانوا يرددون أن الولايات المتحدة الأمريكية بحاجة إلى استمرار رئيس قوى حتى ولو كان على خطأ، كما أن «كيرى» من ناحيته لم يتفهم جيدًا أن المجتمع الأمريكى مجتمع متدين وأن قيم الأسرة تشكل فيه ركنًا مهمًا، ولقد رفع كثير من الأمريكيين – فى معرض التعليق على زواج المثليين – شعارًا يقول (إن الله خلق الإنسانية من آدم وايف ولم يخلقها من آدم وستيف)! ولا شك أن الرئيس الأمريكى «جورج دبليو بوش» قد ضرب على أوتار معينة فى القيم الأمريكية واعتمد على رؤيته الدينية فضلاً عن المخاوف التى زرعها فى أعماق المواطن الأمريكى، والذى تفضل علينا «بن لادن» بتأكيدها من خلال شريطه قبيل الانتخابات، والذى تحدث فيه عن حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م ودور تنظيم القاعدة فيه.

.. إن الولايات المتحدة الأمريكية فى ظنى قد بدأت «تتعافى» ولو ببطء من محنة قاسية، وتستعيد ثقتها فى غيرها وإن كان الطريق لا يزال طويلاً.

❑❑❑

فقـر الخيـال

إن الخيال هو الذى صنع الأمم العظيمة وصاغ الأفكار الكبرى ودفع الشـعوب الناهضة والأفراد المرموقين عبر مسـيرة البشـرية، وهو يختلف بدَوره عن الوهم ويقترب من مفهوم الرؤيـة البعيدة والتصور المسـتقبلى لرحلـة الزمان والمكان. و«حـق الخيال» منحة إلهية يسـتطيع بهـا المرء أن يتجول فى الدنيا وهو فى مكانـه وأن ينتقد كل من حوله دون أن يدركوا شـيئًا من ذلك. فقد يقف الصعلوك أمام السلطان وهو يرفضه فى ذهنه ويتخيل كل ما يريده له، بينما لا يصيبه أذى ولا يناله من جبروت السلطان شيئًا. إن حق الخيال متعة رائعة ينعم بها الفقير والغنى والقوى والضعيف لا تفرقة بين الناس فى ذلك، فكلهم سـواء أمام شـريط الذاكرة أحيانًا وملف الحاضر أحيانًا أخرى ورسـالة المسـتقبل أحيانًا ثالثة، ولا يميـز بيـن الجميع إلا القدرة على تحويل الحلم إلى علـم والخيال إلى حقيقة وذاكرة الماضى إلى استشراف للمستقبل، ولو بحثنا فى تاريخ العباقرة وسيرة الموهوبين وتجارب المجتمعـات الناجحة لوجدنا أن الخيال الثرى هو الذى كان دافع الإنجاز الكبير والتفوق الكاسـح. ولـو تأملنا قليلاً فى ذلك وأمعنا النظر فى هـذه الحقيقة فإننا نقدم بعض الأمثلة على مستوى الجماعات والأفراد، فنحن نؤمن بأن تاريخ الكوكب الذى نعيش فيه هو تاريخ الأفكار الضخمة وتأثير القيادات الملهمة فى مجالات الفكر والسياسة والعلم والأدب والفن.

وسـوف نستعرض عبر السـطور التالية نماذج للمحاور الأساسـية والنقاط المفصلية فى التاريـخ الحديـث للفكر والعلم معًا، ونحـن لا نحلق بذلك فى آفاق فلسـفية ولكننا نريد التأكيـد على قضية «الرؤيـة الغائبة» والتى جعلناها عنوانًا وموضوعًا لواحد من أهم كتبنا، أصدرناه منذ سـنوات لكى ندلل على حالة الفقر فـى الخيال التى أصابتنا بنوع من قصور النظرة أدى إلى توالى النكسـات وفقدان الوعى وضعف الروح، وسوف نكتشف أن المضى وراء السياسـات قصيرة المدى والرؤى المجزأة التى تصدر عن خيال فقير أقرب إلى الوهم منـه إلـى التصور الواقعى لغد الأمة قد أصابنا بما نحن فيه، وهذه نماذج من الإيدلوجيات التى أثرت فى مجرى التاريخ والاكتشافات التى غيرت مسيرة الحياة والأفراد الذين بدأت بهم مراحل جديدة فى رحلة الزمان:

إن الإيدلوجية التى فرضت نفسها على العالم فى القرنين التاسع عشر والعشرين وانطلقت منها أنظمة كانت ذات تأثير ضخم فى شكل العلاقات الدولية هى النظرية «الماركسية» التى أسس لها «كارل ماركس» و«فريدريك إنجلز» وقاد التطبيق الأول لها فى الاتحاد السوفييتى السابق «فلاديمير لينين» وهى نظرية تعبر عن التيار المادى فى أوربا الحديثة، كما أن مضمونها هو انعكاس طبيعى للثورة الصناعية التى تولد عنها صراع طبقى بين القوى الاحتكارية صاحبة رأس المال والقوى العاملة التى حرمت من «فائض القيمة» الذى يمثل الفارق بين ما يستحقون وما يحصلون عليه بالفعل، ولقد أدت تلك النظرية بتداعياتها المختلفة إلى آثار بعيدة فى الفكر الإنسانى المعاصر، فتأثرت بها نظم وعانت منها شعوب لأنها قضت على الحافز الفردى وقتلت المشروع الخاص، ولكنها تبقى – برغم ذلك – رصيدًا فى ضمير الإنسانية للتدليل على تحويل الفكرة مهما كانت إلى واقع طويل المدى.

لا نكاد نعرف فى التاريخ الحديث حركة سياسية ربطت بين الخيال والواقع وانتقلت من الحلم إلى الحقيقة مثلما هو الأمر بالنسبة للحركة «الصهيونية»، التى بدأت إرهاصاتها بالمرور على قيادة «نابليون» وأروقة «محمد على» ثم البلاط العثمانى وصولاً إلى مؤتمر «بازل»، عندما التقى الآباء الصهاينة لوضع الملامح الأساسية لوطن قومى يجرى اغتصابه فى فلسطين العربية.. وأنا ممن يظنون أن تاريخ الحركة الصهيونية يمثل أكبر تجسيد للرؤية بعيدة المدى والتعامل الناجح مع الخيال الثرى، والذين يتابعون مراحل تطور الدولة العبرية يدركون عن يقين أنها ولدت بعيدة عن فقر الخيال قريبة من مفهوم الحلم الجماعى وتوظيف الرؤية الواقعية على نحو غير مسبوق.

عندما بدأ الإمام الشهيد «حسن البنا» دعوته فى مدينة الإسماعيلية عام ١٩٢٨م فإنه كان يحدد بإدراك كامل رؤية بعيدة المدى لمفهوم الإسلام السياسى تحت شعار الدعوة «الله أكبر ولله الحمد»، بينما الهدف السياسى يختفى وراء تلك الرؤية الدينية التى ملأت الأسماع وشغلت الدنيا حتى اليوم، وقد جرى على نهجه دعاة من أمثال «سيد قطب» و«أبو الأعلى المودودى» وكلاهما يعزز مفهوم «الحاكمية» فى الإسلام، فضلاً عن فروع الأصولية الدينية التى خرجت من رحم حركة الإخوان المسلمين.. لذلك فإننا نقرر بحق أن تلك الحركة – بما لها وما عليها – هى نموذج آخر للتصور البعيد والخيال الواسع المؤثر فى الشعوب الإسلامية بل والمجتمعات الدولية.

إن «تشـارلز داروين» عندما سرح بخياله متأملاً فى قضية النشوء والارتقاء ليخرج على الإنسانية بنظريته التى اختلفت الآراء حولها وتباينت النظرة إليها، فإنه قد فعل ذلك من خـلال تأمـل طويل فى محاولة لحل لغز الحياة الذى بـدأ مع الانفجار الهائل عند ميلاد الكون، وحينما اعتبر «داروين» القردة مرحلة من مراحل تطور الإنسـان فإنه دخل تلقائيًا فى مواجهة مباشـرة مع التفسـير الذى قدمته الديانات السماوية الثلاث فى هذا السياق، ومـع ذلك تبقى الداروينية واحدة من أخطر النظريـات العلمية التى أثارت جدلاً كبيرًا ما زال ممتدًا حتى اليوم.

إن حركة المقاومة السـلبية والفلسـفة العميقة التى تبناها المهاتما «غاندى» فى رحلة التحرير الطويلة بدءًا من «جنوب إفريقيا» وصولاً إلى بلده العظيم «الهند»، إنما ولدت هى الأخرى من خيال ذلك الرجل النحيل الجسد الذى لم تكن تستره إلا قطعة قماش تعبر عن الزهـد الهندوكى الذى يعطى أصحابه قوة روحية هائلة، تمكنهم من اجتياز الطرق الوعرة وقطع المسـافات الطويلة من أجل هدف وضعوه أمامهم وحلم تخيلوه لأممهم، لذلك سوف تظل «الغاندية» واحدة من أبرز فلسفات القرن العشرين إن لم تكن أبرزها على الإطلاق.

إن «الفرويديـة» التـى انطلق بها صاحبها «سـيجموند فرويد» من جلسـاته فى مقهى «ليندمان» بالعاصمة النمساوية سوف تظل هى الأب الشرعى للتحليل النفسى مهما اختلف حولها العلماء والأطباء، ولا شك أن مبالغته فى التعويل على العامل الجنسى تفسيرًا لتطور الإنسان ومراحل حياته هى مركز الخلاف بين مؤيديه ومعارضيه، ولكنه يبقى علامة مهمة على طريق اكتشاف النفس البشرية وسبر أغوارها.

إن «أتاتورك» أبا تركيا الحديثة هو رائد العلمانية على أنقاض سلطنة آل عثمان، حتى أصبحـت تقليدًا أصيـلاً منذ أن تبنى الجيش التركى مبادئ ذلـك الضابط القادم من إقليم «سالونيك» لينهى الخلافة الإسلامية، مؤكدًا قدرة خياله البعيد الذى صنع تركيا الحديثة برغم كل ملاحظاتنا على نشأته ودوافعه وغاياته.

إذا كانت البشرية تصنف «أدولف هتلر» باعتباره أكبر مجرم فى التاريخ المعاصر بجنايته الكبرى على الأمم الأوربية والعالم بأسـره، وتسـببه فى قتل عشرات الملايين من الضحايا فـى الحرب العالمية الثانية، نتيجة لذلك الهوس الفكرى والسياسـى الذى اعتمدت عليه «النازيـة» كنتاج للتداخل العنصرى بين القومية والعرقية فى وقت واحد، فإننا لا ننكر أن «هتلر» قد امتلك خيالاً واسعًا وإن كان شريرًا كما كانت له أحلامه المدمرة لعصره وأمته معًا.

إن «شارل ديجول» هو نمط فريد من القادة وطراز خاص من الزعماء قاد حركة التحرير الفرنسى ضد الاحتلال النازى فى الحرب العالمية الثانية، كما أنقذ فرنسا من ورطة احتلال الجزائر حتى أصبحت الجمهورية «الرابعة» هى واضعة التقاليد لسياسة فرنسا الخارجية وشخصيتها المستقلة نسبيًا حتى اليوم، ولقد امتلك ذلك الجنرال الفرنسى رؤية بعيدة وقدرة رائعة على بلورة شخصية فرنسا الحديثة.

إن المرأة الحديدية رئيسة وزراء بريطانيا السابقة «مارجريت تاتشر» قد لعبت هى الأخرى دورًا مهمًا فى تشكيل السياسة البريطانية والاقتصاد القومى للمملكة المتحدة، وهى لا تقل تأثيرًا فى المجتمع البريطانى عن تأثير رجل بضخامة «ونستون تشرشل» ودوره فى الحرب العالمية الثانية، وسوف تظل تلك السيدة التى أصبحت الآن – بحكم العمر وضغوط الزمن – عاجزة عن النطق السليم، بعد أن كانت حديث الدنيا ومركز اهتمام الإعلام صاحبة رؤية للنهوض بوطنها على نحو يعترف به الجميع.

.. هذه نماذج لبشر تملكوا ناصية الخيال وعرفوا كيف يحلمون وهم يقظى، وكيف يقرأون المستقبل، ويتنبئون بالغد، تضاف إليهم قافلة كبيرة عبر التاريخ البشرى كله من أمثال «الإسكندر الأكبر» و«نابليون بونابرت» و«محمد على» و«عبد العزيز آل سعود» و«جمال عبد الناصر» و«أنور السادات»، وكلها قيادات رحلت عن عالمنا، ولكن بقيت آثارها لكى تؤكد أن الرؤية الثرية والخيال الواسع هما مقدمتان للإنجازات الضخمة والقرارات العظيمة والأفكار الكبرى، أما «فقر الخيال» فهو الأب الشرعى للهزائم والانتكاسات مع الركود وغياب القدرة على المبادرة والتغيير والإصلاح.

❑❑❑

ارتباطات دينية أم تحالفات سياسية؟!

لدى شك كبير مرة أخرى فى أن الدين عامل أساسى فى العلاقات الدولية المعاصرة.. نعم.. قد يستخدمه البعض ولكن لخدمة مصالح معينة وأهداف محددة، ذلك أن المواقف الدينية يجرى توظيفها لخدمة أغراض سياسية، فلست أظن أن الصراع الذى يدور فى عالم اليوم هو حرب مقدسة بين الأديان وإن كنت لا أقلل فى الوقت ذاته من شأن نظرية صراع الحضارات، فالعامل الثقافى يلعب دورًا رئيسيًا فى تكييف العلاقة بين المجتمعات المعاصرة، فأنا لا أستطيع أن أقول ـ مثلاً – إن المسلم المصرى أقرب إلى المسلم الإندونيسى منه إلى شريك الوطن ورفيق التاريخ وصنو الحياة القبطى المصرى؛ فالثقافة المشتركة فى رأيى تحدث انسجامًا وامتزاجًا أقوى بكثير من وحدة روحية بعيدة تفتقر إلى الشراكة الإنسانية.

إننى أريد أن أقول صراحة إن القوى العظمى فى عالم اليوم لا تتصرف من منطلقات دينية وإن اعتمدت على ادعاءات تنطلق من قواعد روحية أحيانًا، ولو أخذنا السياسة الأمريكية كمثال فسوف نجد أنها قد تعاونت مع التيارات الإسلامية طوال سنوات الحرب الباردة وارتبطت معها فى تحالف ضمنى فى مواجهة الاتحاد السوفييتى السابق والأنظمة الشيوعية التى سادت فى القرن الماضى، ثم ها هى تعود اليوم لتستبد بها الهواجس وتسيطر عليها المخاوف من كافة الجماعات الإسلامية بل وتربط بين معظمها وبين الإرهاب الدولى كظاهرة أممية.. ويهمنى هنا أن أسجل عددًا من الملاحظات التى تؤكد أن السياسة والمصالح تسبقان الدين والعقائد فى العلاقات الدولية المعاصرة، وأهم هذه الملاحظات الشواهد التالية:

أولاً: إن العلاقات الأمريكية – التركية هى نموذج لتحالف المصالح برغم اختلاف الجذور الحضارية والأسس الدينية والمنطلقات الثقافية، فدولة «أتاتورك» تمثل نموذجًا للعلاقة الوثيقة مع الولايات المتحدة الأمريكية منذ سنوات طويلة فى إطار حلف الأطلنطى تارة وفى إطار المصالح المشتركة فى أوربا ومنطقة البحر المتوسط والشرق الأوسط تارة أخرى، بل إننى لاحظت من زياراتى لدولة «قبرص» حجم

المرارة التى يشعر بها القبارصة اليونانيون تجاه الموقف الأمريكى منهم والداعم بشكل كبير للسياسة التركية، والذى تجلى فى خطة الأمين العام للأمم المتحدة «كوفى أنان» التى طرحت للاستفتاء، فرفضها اليونانيون ووافق عليها الأتراك فى محاولة أمريكية غير متوازنة لتوحيد الجزيرة بصورة لا تختلف كثيرًا عن التصور التركى لمستقبلها، بل إننا نلاحظ دائمًا أن خصوصية العلاقات التركية الأمريكية كانت هى العنصر الضاغط على الاتحاد الأوربى، ليفتح أبوابًا للتفاوض مع «أنقرة» من أجل تحقيق حلمها التاريخى فى أن تكون عضوًا فى الاتحاد الأوربى ولو فى المؤخرة بدلاً من أن تكون قوة قائدة فى الشرق الأوسط ولو فى المقدمة! ولذلك فإن العلاقات التركية – الأمريكية هى نموذج لتوظيف المصالح دون اعتداد بالخلفية التاريخية أو الأرضية الدينية.

ثانيًا: لعلنا لا نزال نتذكر كيف أن الولايات المتحدة الأمريكية قد ضربت «الصرب» وهم مسيحيون أرثوذكس لصالح الأغلبية المسلمة فى إقليم «كوسوفا»، ولم تتخذ «واشنطن» فى ذلك الوقت الدين معيارًا لصنع سياستها على حساب مصالحها، فالمهم لدى «واشنطن» دائمًا هو أن تكون هناك نظم طيعة متعاونة بغض النظر عن مصداقية ديمقراطيتها بل وشرعية وجودها.

ثالثًا: لقد كانت الثورة الإسلامية فى «إيران» هى نقطة التحول فى العلاقة بين الإسلام والولايات المتحدة الأمريكية وربما الغرب عمومًا، لأنه عندما اصطدمت المصالح جرى فك الارتباط سريعًا بين التيار الإسلامى والسياسات الأمريكية، وهو أمر يكشف عن الحقيقة التى نتحدث عنها، ويؤكد ما نذهب إليه من أن الاهتمام منصب بالدرجة الأولى على من يستطيعون اتخاذ القرار الرشيد والمواقف الصحيحة فى الوقت المناسب، وليس الجانب العقائدى هو المؤثر الأساسى فى سياسات القوى الكبرى إنما المصالح هى الفيصل دائمًا.

رابعًا: إن تنامى الظاهرة الإسلامية فى الشرق الأوسط فى العقود الثلاثة الأخيرة هو الذى صنع صدام المصالح قبل الحديث عن صدام المعتقدات، فالإسلام السياسى الذى بدأ بحركة «الإخوان المسلمين» كان يمضى فى طريقه منسجمًا مع القوى الغربية مباركًا للأنظمة الملكية مطالبًا فقط بالدعوة الإسلامية وتطبيق الشريعة على أهلها،

ولكـن الأمر تجـاوز ذلك عندما اختلطـت التيارات الإسـلامية المتباينة من فكر «أصولـى» بدأ مـن مصر إلى تيار «وهابى» التقى به فى الجزيرة العربية والخليج، فضلاً عن تصاعد ظاهرة العنف بشـكل غير مسـبوق لم يقتصـر على المجتمعات الإسـلامية وحدهـا ولكنه تجاوز ذلـك ليصبح ظاهرة عالمية تهدد الأمن والسـلم الدوليين.

خامسًـا: عندما ارتبطت حركة المقاومة الفلسـطينية بالمشروع الإسلامى فإن تطورًا ضخمًا طرأ على رؤية الآخر لها، فالنضال الوطنى من أجل الاستقلال والحرية كان أمرًا طبيعيًا ثم جاء اختلاط المقاومة ضد الاحتلال بالأصولية الإسلامية ليصنع حاجزًا جديـدًا يضرب مصالح بعض القـوى الدولية والإقليمية مباشـرة؛ ولعل نموذج العمليات الاستشهادية هو خير دليل على ذلك، بل إن التمرد «الكشميرى» ضد «الهند»، و«الشيشـانى» ضد «روسـيا الاتحادية» بالإضافة إلى سنوات الصراع فى «البوسـنة» و«الهرسـك»، أقول إنها كلها قد تركـت بصمة دينية على تلك الصراعات ومزجت بين الدوافع العقائدية وبين المصالح الدولية.

.. مـن هذه الملاحظات الخمس يمكننا أن نقول: إن الجانب السياسـى فى العلاقات الدولية والمرتبط بالمصالح الاقتصادية هو الذى يحدد فى الغالب أين تقف القوى المختلفة من المشكلة الواحدة، بل إننى ما زلت أتذكر تصريحًا للسيد «دونالد رامسفيلد» وزير الدفاع الأمريكى عام ٢٠٠٣م عندما قال: إن بلاده لا تمانع فى قيام حكومة إسـلامية فى العراق شـريطة ألا تكون تلك الحكومة على النمط الإيرانى، أى إن وزير الدفاع الأمريكى يريدها إسلامية طيعة تتجاوب مع السياسة الأمريكية ولا تمارس التحريض ضدها، بل إننا ما زلنا نرصد اهتمامًا متزايدًا من جانب الدوائر السياسية سواء فى «واشنطن» أو فى عواصم دولية أخرى بقضايا الوحدة الوطنية والاندماج السياسـى، مع متابعة دقيقة للظاهرة الإسـلامية واتصالات مستمرة قد تصل إلى حد الغزل المتبادل مع التيار الإسلامى المعتدل، الذى ينبذ العنف باعتباره قوة سياسية موجودة لا يمكن إنكارها.

إننى أريد أن أقول بهذه المناسـبة إن الولايات المتحـدة الأمريكية تفضل التعامل مع الأنظمـة الطيعة والشـخصيات المتعاونة ولا يعنيهـا بعد ذلك إن كان النظـام ديمقراطيًا أو كانت الشـخصية نزيهة، فالمهم هو إثبات الولاء والتعاون الدائم من أجل الحفاظ على

مصالح «واشـنطن»، أما التحريض على سياساتها والتعبئة الشعبية والإعلامية ضدها فهى أمور تقلق القوة الأعظم وتدعوها إلى اتخاذ مواقف أكثر تشـددًا وأقل تفهمًا وأسرع تأثيرًا.. لذلك فإننى أقول لمن نسـوا: إن الولايات المتحدة الأمريكية قد وقفت عام ١٩٨١م موقفًا سـلبيًا فى المواجهة بين الكنيسة القبطية والرئيس الراحل «أنور السادات»، عندما اعتقل الأخير معظم الرموز السياسـية فى بلدنا وأضاف إليهم قيادات الكنيسة وعلى رأسها البابا «شـنودة» الثالث الـذى اعتصم بالدير، فـإن الولايات المتحدة الأمريكيـة لم تضغط على «السـادات» الحليف القـوى والزعيم المحبوب لدى الغرب والولايـات المتحدة الأمريكية وغفرت له ما فعل.. لذلك فإننى أقول إن أية محاولة للاستقواء بالأجنبى هى محاولة تدعو للسـخرية لأن الأجنبى يحتكم إلى مصالحه الحقيقية ولا يحتكم إلى عقيدته الدينية مهما ادعـى غيـر ذلك أو تظاهر به. فالوطن فى النهاية يجب أن يحل مشـكلاته ذاتيًا ويواجه الخلافات مع شـركاء الحياة فى إطار الأسرة الواحدة، أما الأجنبى فالملتحف به عار ولو بعد حين، ولحسـن الحظ فإن أقباط مصر قد تنبهوا لهذه النقطة منذ البداية وعاشـوا حياة الوطن بما فيها وما عليها ورفضوا دائمًا حماية الأجنبى أو الاعتماد عليه إلا من استثناءات قليلة لعناصر شاردة معظمها من الطيور المهاجرة وليست من الكيانات الثابتة.. إننى أريد أن أقول فى ختام هذه السطور: إن العبرة فى العلاقات الدولية والصراعات الإقليمية تكون دائمًا بالمصالح والمكاسب والإستراتيجيات وليست أبدًا بالعقائد والملل والديانات.

□□□

الإصلاح.. المفترى عليه!

أضحى الإصلاح تعبيرًا يتردد على ألسنة الجميع بمناسبة وبغير مناسبة وكأنما أصبح هو كلمة السر التى تحمل أسباب الخلاص من كل أزمة والمخرج من كل مشكلة، لقد أصبحت تلك العبارة مظلومة بحق، حيث تلوكها الألسنة بلا هدف وتكررها البرامج السياسية والخطط الاقتصادية بإسراف لا يزيد كثيرًا على تكرار كلمتى الحرية والديمقراطية فى خطاب التنصيب الذى ألقاه الرئيس الأمريكى الثالث والأربعون فى بداية الفترة الثانية من رئاسته للقوة العظمى الوحيدة فى عصر «الباكس أمريكانا»، ولقد أصبح تعبير الإصلاح مطروحًا فى العامين الماضيين منذ ألقى وزير الخارجية الأمريكى السابق «كولين باول» محاضرته الشهيرة حول التغيير والديمقراطية فى الشرق الأوسط، وبالمناسبة فليس منا من يرفض الإصلاح منهجًا لحياة أفضل وأسلوبًا لتحقيق غايات إنسانية وطموحات وطنية، ولكن السؤال المطروح هو: عن أى إصلاح نتحدث؟! وهل الإصلاح طرح عام لا سند له من الواقع ولا مقومات لديه من الظروف المحيطة؟!

إننا نسجل بهذه المناسبة أن الإصلاح تعبير ارتبط بحركة التحديث فى تاريخ مصر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، ولم يكن تعبيرًا لقيطًا أفرزته الأحداث الدولية الأخيرة بعد الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م. فنحن نتحدث فى مصر عن «رفاعة الطهطاوى» كرائد للتنوير والإصلاح الفكرى، ونتحدث عن «محمد عبده» كرائد للوعى والإصلاح الاجتماعى. فمفهوم الإصلاح ليس مفهومًا وافدًا علينا ولكنه مرتبط بنا، نابع من حاجتنا، متأثر بالخصوصية القومية والملامح الذاتية للهوية، لذلك نقدم هنا عددًا من الاعتبارات المرتبطة بمفهوم الإصلاح:

أولاً: الإصلاح عملية شاملة قد تكون تدريجية على مراحل ولكنها لا تقبل التجزئة فهى عملية متكاملة لها أبعاد سياسية وأخرى اقتصادية وغيرها ثقافية؛ لذلك فإن محاولة الفصل بين الإصلاح الاقتصادى والإصلاح السياسى هى محاولة لا تستند على أساس. فالديمقراطية هى حارسة التنمية، وهناك شعوب تتقدم سياسيًا ولكنها لا تحقق القدر نفسه اقتصاديًا مثلما حدث فى روسيا الاتحادية بعد سقوط الاتحاد

السوفييتى، فضلاً عن أن بلدًا مثل السودان هو نموذج تقليدى لهذا النمط من التفاوت بين الإصلاحين السياسى والاقتصادى.

ثانيًا: إن الإصلاح لا يعنى مجرد تحديث البنية الأساسية أو إدخال عناصر التقدم التكنولوجى واستخدام آليات عصرية لم تكن معروفة من قبل وأساليب تقنية لم تكن معتمدة من قبل، بل الإصلاح رؤية طويلة المدى تقوم على صحوة عقلية ذات عناصر متجانسة، لا تقف عند الإطار المادى أو الهيكل البنيوى، ولكنها تنسحب أيضًا على عملية التغيير الشاملة فى القيم السائدة والتقاليد المرعية والأفكار المسيطرة.

ثالثًا: إن الإصلاح لا يقوم به إلا الإصلاحيون، وعندما كتب الأديب المصرى الراحل «أحمد أمين» كتابه عن زعماء الإصلاح، فإنه كان يفترض أن جوهر الشخصيات المحورية التى كتب عنها هو وجود ذلك القاسم المشترك بينها والتوحد فى مفهوم الرؤية الاستباقية لاستشراف المستقبل، وقد يكون من الأسباب التى تحول دون تحقيق التقدم المطلوب وفقًا لبرنامج الإصلاح المنشود هو غياب تلك الرؤية وافتقاد القدرة على التنظير للغد.

رابعًا: إن أخطر ما يتعرض له الإصلاح هو أن يتحول إلى شعار مطاط – مثلما يحدث الآن – حتى يفقد معناه بسبب تكرار ذكره والحديث عنه فتميع القضية وتتداخل الأمور وتختلط الأوراق، فالإسراف فى استخدام تعبير الإصلاح فى السنوات الأخيرة كاد يفقده مضمونه الحقيقى ومعناه الصحيح.

خامسًا: إن الكل يتحدث عن إصلاح الأنظمة والشعوب، الولايات المتحدة ودول الشرق الأوسط.. من ينحازون إليه ومن يحاربونه فى الخفاء فالكل يتحدث عنه بغير استثناء، ولكن هناك بعض الأنظمة التى تسعى لإجهاضه وخطف شعاره والمزايدة عليه، بحيث يصبح فى النهاية شكلاً بغير مضمون وشعارًا بلا هدف وكلمة جوفاء ليس لها دلالة محددة أو مرجعية واضحة.

.. هذه اعتبارات قدمناها لإثبات حقيقة مؤداها أن الإصلاح عملية معقدة ومتشابكة لا تقف عند حدود معينة ولا ترتبط بنظام بذاته، ولكنها تعتمد على ذلك المثلث الذهبى الذى يقوم على تطوير التعليم وتصدير الثقافة وتوطين التكنولوجيا، وكل محاولة للحيلولة دون

ذلـك هى عملية معادية للجوهر الحقيقى للإصـلاح، ونحن نظن أن الإصلاح عملية عقلية تدور فى رأس الوطن وتبدأ بتغييرات جذرية وإن كانت تدريجية، وتقبل عن رضا بالتعامل مع الآخر والتفاعل المستمر الذى يدفع إلى الأمام، ولا يمكن أن نناقش الاعتبارات السابقة دون أن نطرح وجهة نظرنا فى المقدمات الطبيعية لعملية الإصلاح الجذرية فى مجتمعاتنا العربيـة، وهى تقوم أساسًـا على مدى نجاح عملية فك الاشـتباك بيـن العناصر الخمس التالية:

- السياسـة والدين.. الشرق الأوسـط الكبير بمحتواه العربى والإسلامى يحتاج إلى عملية واعية تمنع تسييس الدين وتعطى «ما لله لله وما لقيصر لقيصر»، ولسنا بذلك دعاة توجه علمانى أو أصحاب نزعة لا تتحمس لدور الدين، كما أننا نعترف بأن الشريعة الإسلامية من الثراء والرحابة بحيث تقدم نموذجًا فى الحكم وأسـلوبًا فى الحياة، ولكننا نرى فى الوقت ذاته أن تجارب المسـلمين فى هذا السـياق لا تشجع ـ فى ظل الظروف الدولية الحالية ـ على مثل هذا الطرح، وندعو الأمة الإسلامية لأن تحسم أمرها وتحدد خيارها فى عملية فك اشتباك مؤمنة وواعية بين الدين والسياسة خصوصًا فى منطقة تلعب فيها القيم الروحية دورًا شـديد التأثير بالغ الحساسـية، فضلاً عن أن حجم الإنفاق الدينى فى بلادنا يتجاوز الحدود التى شرعها الله بل يتحول إلى نوع من الإسراف والتظاهر.
- السـلطة والثروة.. لقد اختلطـت تاريخيًا العلاقة بين الإمارة والتجـارة، فتاريخ الدولة الإسلامية العربية يدل بوضوح على الخلط بين المال العام والخاص، وهى سمة لا تنفرد بها المجتمعات العربية الإسلامية وحدها ولكنها شائعة فى المجتمعات التى تفتقر إلى المصداقية السياسـية والشفافية الاقتصادية والمحاسبة المالية، ونحن ممن يرون أن من دعائـم الإصلاح ضرورة الفصل بين الملكية والحكم، أى بين من يملكون ومن يحكمون؛ لأن زحف الثروة على السـلطة يشـكل فى النهاية جماعة ضغط من طراز خاص تجعل القرار السياسى أسيرًا لمصالح البعض وأهداف البعض الآخر.
- الأغلبية والأقلية.. وأقصد بذلك العلاقة بين الأغلبية العددية والأقلية العددية أيضًا؛ لأن عالمنا العربى الإسـلامى لديه درجة من التجانس الذى يجعل الحديث عن اختلافات عرقيـة أو دينيـة أو عقائدية حديث بلا معنى، فالعربية هى لسـان المنطقة بأغلبيتها وأقليتها، والإصلاح ينطوى على درجة من الرعاية التى تقدمها الأغلبية للأقلية بحيث

تحميها وتحرص عليها وتحيل التعددية إلى نعمة وليست نقمة، فالأقليات العددية فى العالم العربى الإسلامى تحتاج إلى نظرة جديدة تواكب روح العصر وظروف ما جرى فى السنوات الأخيرة.

- الماضى والحاضر.. لا يمكن أن نظل أسرى الماضى - بكل ما له وما عليه - نتغنى بأمجاده ونبكى على أطلاله ونترك الحاضر بمشكلاته ونهاجر من زماننا إلى عصور سبقتنا، بينما الأولى بالهجرة هو أن نتقدم نحو المستقبل نفكر فيه ونتعايش معه ونبشر به، ولعل قضية الديمقراطية التى تعبر عن الحرية السياسية بأوسع معانيها وتشير إلى دولة القانون فى أوضح صورها هى خير دليل على أهمية ما يسعى إليه الإصلاحيون من فك الاشتباك بين الماضى والحاضر.
- المؤسسة والفرد.. إن أخطر ما يواجه المجتمعات النامية عمومًا والشرق أوسطية خصوصًا هو طغيان الفرد على المؤسسة بحيث تذوب فى كيانه وتختفى وراءه، بينما المؤسسة هى الأصل الباقى والفرد هو الزائر العابر الذى لا يجب أن يستحوذ على منصب أو يتمسك بموقع أو يتوحد مع سلطة، وذلك ينطبق على كافة مؤسساتنا الفكرية والثقافية والتعليمية وكذلك سلطاتنا التشريعية والقضائية والتنفيذية، بل ويمتد بشدة وقوة ليصبح مرضًا ينخر فى عظام الجهاز الإدارى للدولة... وأنا ممن يعتقدون أن الإصلاح الإدارى غاية تسبق غيرها وهدف نتطلع إليه من أجل نسف ذلك الركام الضخم من الروتين العفن والبيروقراطية المتوارثة، حتى يتحقق توازن حقيقى بين المؤسسة والفرد على نحو يضمن ثبات القيم الوظيفية والتقاليد المهنية والدورة الصحية للجهاز الإدارى السليم.

.. إنها اعتبارات نسوقها ومعايير نتحدث عنها وكلها تشير إلى ذلك الشعار العظيم الذى أصبح كالحق الذى يراد به باطل أو المظلة التى تحجب الضوء الحقيقى، إنه الإصلاح.. ذلك المفترى عليه!

❑❑❑

استحقاقات تاريخية

تؤرقنى كثيرًا قضية ذات بعد إنسانى تدور حول الرموز التاريخية لحضارتنا العربية خصوصًا فى مصر، وما ناله البعض أكثر مما يستحق وما افتقده البعض برغم أنه يستحق، والذى دعانى إلى الكتابة فى هذا الموضوع الآن أنه صدر لمؤرخ مصرى مرموق مؤخرًا كتاب تعرض فيه لفترة حكم رئيس سابق، وتحدث عن أوضاع الدرجات العلمية فى الجامعة ومحاولات الترغيب والترهيب التى تعرض لها، كما أن أكبر كاتب سياسى معاصر قد تعرض هو الآخر للحياة الخاصة للملكة الراحلة «فريدة» فى ثنايا حديثه عن تحليل بعض العقد فى شخصية الملك الراحل «فاروق»، الذى ما زلنا نصر على أنه لم يكن حاكمًا خائنًا ولكنه كان ملكًا فاسدًا.

ولقد دفعت بى تلك الأطروحات المتعاقبة إلى نوع من التأمل فى عدد من الاستحقاقات التاريخية، وأنا أعلم بداية أن المساس بالرموز هو ولوج لطريق محفوف بالمخاطر ملىء بالأشواك.. فأنا أعتقد مثلاً أن «محمد على» – الذى يجب أن نحتفل بالمئوية الثانية لتوليه الحكم هذا العام احتفالاً يليق بدوره – لم ينل استحقاقه التاريخى المناسب، فقد حول مؤرخو الثورة المصرية «ساكن الجنان» «محمد على الكبير» إلى مجرد حاكم أجنبى وافد استخدم مصر كضيعة له ولأولاده من بعده، وهو منطق لا يخلو من الافتراء ولا يبرأ من ظلم، كما أن الخديو «إسماعيل» – المفترى عليه – قد ضاعت نواياه الطيبة وتصميمه على تحديث مصر فى غمار الديون الأجنبية، ثم حمى التخوين التى لا تلحق فى رأيى إلا بابنه الخديو «محمد توفيق» الذى فتح بوابات مصر أمام الاحتلال البريطانى وبطش بـ «عرابى» والعرابيين بطشًا شديدًا، كما أننى أضيف إلى ذلك أن الاستحقاقات التاريخية للأسرة العلوية لم تكن عادلة فى مجملها، فضاعت فى الزحام أسماء تستحق التقدير من أمثال «عمر طوسون» و«عباس حليم» و«يوسف كمال» و«محمد عبد المنعم»، فضلا عن أن الخديو «عباس حلمى الثانى» قد ساير الحركة الوطنية لفترة دفع ثمنها من عرشه، بل إن الملك «فؤاد الأول» – برغم جهامته وعدم إلمامه باللغة العربية – قد قدم للمجتمع المدنى المصرى وللتعليم إسهامات مشهودة.

وسوف أستعرض أسماء بعض الشخصيات اللامعة فى مجالات السياسة والأدب والفن بل والرموز الدينية أيضًا، لكى أقول فى حقها ما أعتقد أنه صواب - وجل من لا يخطئ - فأنا أظن مثلاً وبعض الظن إثم - أن «مصطفى كامل» الذى مات فى الرابعة والثلاثين من عمره قد استفاد من ظروف رحيله المبكر واكتسب تعاطفًا شديدًا باعتباره محامى «دنشواى» الأول و«صب مصر وشهيد غرامها» فنال قليلاً أكثر مما يستحق، أما «سعد زغلول» فقد أفادته الظروف كما لم يحدث لزعيم وطنى آخر.. وأنا أحسب بالمناسبة أن «مصطفى النحاس» أشد منه صلابة وأكثر تفانيًا، برغم أنهما شريكا نضال وزعيما حزب واحد، أما «طلعت حرب» الذى يحمل اسمه شارع وميدان فى قلب العاصمة المصرية، فإننى أعتقد أنه قد نال أقل مما يستحق لأن ريادته الاقتصادية وفرادته الفكرية تضعانه فى موقع أعلى مما وضعنا فيه تمثاله! و«إسماعيل صدقى» «نمر السياسة المصرية» لم ينل حظه من التقدير لآرائه الجسورة وفكره المستنير وقدرته على استشراف المستقبل وسط ضباب الشعارات وفوضى العواطف، كذلك فإن الإمام «محمد مصطفى المراغى» شيخ الأزهر الأسبق يستحق تكريمًا أكبر، كما أن الإمام «محمود شلتوت» لم يلتفت إليه الكثيرون خصوصًا فى دوره للتقريب بين المذاهب الإسلامية وإنصافه للشيعة «الاثنا عشرية»، أما البابا الزاهد راهب الصحراء «كيرلس السادس» فلم ينل على المستوى الوطنى ما كان يستحقه من تكريم وإجلال لظروف تتصل بدور الدين عمومًا فى العصر «الناصرى»، أما «محمد نجيب» فهو يقف مظلومًا فى إحدى حارات التاريخ، بينما يتربع رفيقاه «عبد الناصر» و«السادات» فى موقعيهما اللائق فى أكبر ميادينه.. وبالمناسبة فإننى أعطى كلا من الزعيمين الأخيرين استحقاقه التاريخى كاملاً، «فعبد الناصر» هامة قومية عالية وبطل ذو «كاريزما» من نوع خاص يقف فى مصاف التاريخ إلى جانب تلك الزعامات الضخمة التى كانت آثارها المعنوية أكثر من آثارها المادية، فهو نموذج من أبطال الأساطير «الهيلينية» أكثر منه رئيسًا دستوريًا مسئولاً، أما «السادات» فهو ثانى «رجل دولة» فى تاريخ مصر بعد «محمد على» لأن مثله كان يعرف ما يريد ويجيد اللعب على التوازنات الدولية والمتغيرات الإقليمية، كما أن قدرة كل منهما - فى عصره - على المناورة السياسية هى أمر مشهود ومعترف به. ومن الذين أخذوا قليلاً أكثر من حقهم أيضًا أبو الدبلوماسية المصرية الدكتور «محمود فوزى» فأنا أسلم بأنه طراز رفيع للدبلوماسى التقليدى بكل مقوماته الكلاسيكية،

وقد كان ثانى وزير خارجية لمصر الثورة بعد السيد «أحمد فراج طايع» الذى لم يمكث إلا شـهورًا قليلة، ولكن د. «فوزى» لم يتمكن للأسـف من توظيف إمكاناته فى خدمة الثورة المصرية، ربما لأنه آثر السـلامة فى تعامله مع الضباط الشـباب أو لأن المساحة التى كان يشـغلها المستشار السياسـى الأول للرئيس «عبد الناصر» الأستاذ «هيكل» لم تترك للدكتور «فوزى» هامشًـا للحركة أو قدرة على إبداء الرأى، حتى ترددت قصة مؤداها أنه فى المرة التى طلب منه «عبد الناصر» المشـورة فى موقف معين أحال الدبلوماسى المخضرم إجابته إلـى إلهـام الزعامة الناصرية وفرادة القيادة السياسـية! وأنا هنـا لا أتحامل إطلاقًا على الدكتـور «فوزى» فأنا أعرف جيـدًا فضله على جهاز الدبلوماسـية المصرية ومكانته لدى تلاميذه ومعاصريه.

وإذا كان لنا أن نتطرق إلى مجال الأدب فإننى أظن أن «توفيق الحكيم» يسـتحق أكثر مما أخذ، و«طه حسين» و«العقاد» نالا بالضبط استحقاقهما العادل. وفى مجال الفن فإننى أظن أن «يوسـف وهبى» رائد المسـرح المصرى كان مجتهدًا أكثر منه موهوبًا، بل إن قوة شـخصيته وطريقة حديثه وارتفاع صوته وطـول قامته، كانت كلها بدائل فنية لتغطية فقر الموهبة وغياب مرونة الحركة على المسرح، كما أن «عبد الوهاب» و«أم كلثوم» و«عبد الحليم حافـظ» قد نالوا ما يسـتحقون، أما «فريد الأطرش» و«كارم محمـود» و«محمد قنديل» فقد انتقص التاريخ من إمكاناتهم بسـبب ظروف العصر الذى عاشـوا فيه والرموز الكبيرة التى حالت بينهم وبين الضوء الساطع.. بقى أن أقول إن الإمام «محمد عبده» يحتاج إلى تكريم خاص فى هذه الظروف بالذات، فقد كان ذلك الداعية المستنير والإصلاحى الكبير علامة مضيئة فى عصره لا لأنه دعا إلى الإصلاح الدينى والاجتماعى فحسـب، ولكن أيضًا لأنه امتلك أدوات التواصل الإنسانى والانفتاح على الآخر، فكانت له مثلاً مراسلات مع الأديب الروسى الكبير «تولستوى»، كما كانت جولاته وصولاته فى «باريس» مثار احترام وتقدير، وإذا كنا نتحدث الآن عن الإصلاح الشامل فإن «محمد عبده» يظل القدوة والنموذج والمنار الباقى.

وإذا تحركنا قليلاً إلى الصعيد العربى فإننى سوف أختار نموذجين من بلد عربى واحد هو «لبنان» الشـقيق محاولاً رد الاعتبار لـ«أنطون سـعادة» معتبرًا تأسيسه للحزب القومى السـورى، ودعوته لدولة الهلال الخصيب بنجمتـه فى «قبرص» هى دعوة لا تتعارض مع

القوميــة العربيــة بل تقف فى صــف موازٍ مع الدعوة إلى وحــدة وادى النيل، فالتكتلات الإقليمية هى فى النهاية إضافة للعمل العربى المشترك.. كذلك فإن الرئيس اللبنانى الأسبق «كميــل شــمعون» يحتاج تاريخه إلى نظــرة أكثر عدلاً وإنصافًا منذ أن كان ســفيرًا لبلاده بالعاصمــة البريطانية فــى أواخر الأربعينيات وصولاً إلى رئاســته للدولة اللبنانية، حيث إننى أظن أنه كان تعبيرًا عن الخصوصية اللبنانية ولم يكن متطوعًا بالعداء للعروبة أو المد القومى فى عصر «عبد الناصر»، فضلاً عن أنه كان طرازًا سياســيًا لبنانيًا يســتحق التحليل الموضوعى والتقييم النزيه.

.. إننى أدرك أن الســطور الســابقة واســتعراض بعض النماذج التاريخية قد تفتح علىّ أبــواب الجحيم، ولكننى أدعو الأجيال الجديدة من شــبابنا إلــى قراءة موضوعية ومنصفة للملفــات التاريخية المختلفة، وأن يتوقفوا طويلاً أمام الرموز المتعاقبة فتاريخنا لا يحتمل الأصنام الجامدة ولكنه يحتاج إلى المراجعة الشــاملة.. وبالمناســبة فإنه لا توجد مسلمات باقية ولكن توجد نظرات متطورة، وأنا أدعو الأجيال الجديدة إلى دراسة تاريخها الوطنى دون تحامل على فترات معينة أو حماس مفرط لفترات أخرى، وأحســب أن فتح الملفات لن تكون مســألة عقيمة لأن المســتقبل المشــرق والإصلاح الحقيقى لا يأتيان إلا من ماض واضح وعبرة كاملة.

❑❑❑

وصايا العم «بطرس»

الدكتور «بطرس بطرس غالى» شخصية مصرية فريدة تحتاج إلى دراسة واعية وفهم عميق، ولقد ربطتنى به ظروف تمتد لأكثر من أربعين عامًا عرفته خلالها عن قرب أستاذًا جامعيًا لامعًا ووزيرًا مرموقًا، ومضت علاقتى به وثيقة قوية وهو يشغل الوظيفة الدولية الأولى كسكرتير عام للأمم المتحدة، وفى كل المراحل وجدته فى حوار مستمر مع الذات، وتفكير متصل من أجل وطنه، لم نعرفه يومًا بدينه أو عقيدته ولكن عرفناه دائمًا بعلمه المنظم وطريقة تفكيره الحصيفة وهويته الوطنية البارزة، وأظن أننا – نحن تلاميذه – قد التقطنا درجة عالية من جدلية التفكير وتقاليد الحوار من ذلك الرجل الشامخ بدءًا من أول محاضرة حضرتها له فى «قاعة البحث»، عندما أوصانى أن أكتب دراسة حول فكرة التنظيم الدولى الإسلامى عند «عبد الرحمن الكواكبى» مستمدًا من كتابه «أم القرى» وصولاً إلى استفزازات المحاور المشاغب «أحمد منصور» وهو يستدرج أستاذنا فى برنامج «شاهد على العصر» فى قناة الجزيرة، وبرغم أن المسافة بين الحدثين تصل إلى ثلاث وأربعين سنة فإن «بطرس غالى» ظل هو نفسه «بطرس غالى» الديمقراطى بطبيعته. المجادل بفطرته، المحترم بشخصيته، والذى يهمنى فى هذه السطور هو أن أتحدث مع القارئ حول بعض وصاياه المرتبطة بالسياسة الخارجية المصرية، وقد هاتفته مستفسرًا عن صحته متمنيًا لأستاذى عافية دائمة وعطاءً مستمرًا، ولكنه – كعادته – يحيل دائمًا أحاديث المجاملة إلى موضوعات مفيدة يبدى فيها رأيًا أو يسدى نصيحة، ولقد لفت نظرى فى حديثه لى مؤخرًا الوصايا التالية:

أولاً: كان الدكتور «بطرس» عائدًا من زيارة أخيرة «للهند» وهى زيارة تقليدية شبه سنوية حرص عليها للعملاقين الآسيويين «الهند» و«الصين»، وكان مما قاله لى إن الهند تتطلع بإلحاح لزيارة من الرئيس «مبارك» لأنها لم تسعد باستقباله منذ عام ١٩٨٣م، وأضاف أنهم ينتظرونه بواحدة من أرفع جوائزهم على الإطلاق تقديرًا لدوره منذ سنوات على الساحتين الدولية والإقليمية، ولقد صدقت مقولة الدكتور «بطرس غالى» عندما جاء إلى مصر بعد ذلك بأيام قليلة مبعوث هندى خاص

استقبله الرئيس «مبارك» وهو السفير الهندى المعروف «جاراكان» الذى التقيته على عشاء فى منزل السفير الهندى بالقاهرة، حيث كان التعليق يدور حول مقال لى فى صحيفة «الأهرام ويكلى» حول العلاقات العربية – الهندية، ولقد ذكر لى المبعوث الهنـدى أن الرئيس «مبارك» قد بادره عند اسـتقباله بالقول إنه ينتوى زيارة الهند قريبًا بعدما حالت شـواغل المنطقة المتتابعة من تحقيق تلك الزيارة فى السـنوات الماضيـة، وقد تحدث الضيـف الهندى حديثًا طيبًا عن مسـتقبل العلاقة بالجارة «باكسـتان» وكيف يمكن أن تدخل المنطقة مرحلة الاسـتقرار بعد طول توتر، وهو حديـث قريب من الانطباع الذى خرج به الدكتور «بطرس غالى» بعد لقائه برئيس وزراء الهند ،حيث بدت القضية الفلسطينية حاضرة فى الضمير الهندى لا تتراجع ولا تموت برغم العلاقات الوثيقة التى ربطت الهند بإسرائيل فى السنوات الأخيرة.

ثانيًـا: تحدث الدكتـور «بطرس غالى» عن التطلع المصرى لشـغل مقعد إفريقى دائم فى مجلـس الأمن، وتناول الموضوع بحماسـه المعهود مؤكـدًا أن العلاقات الإفريقية الهنديـة وثيقة للغايـة تجمعها أواصر عديدة ليس أقلها العضوية المشـتركة بين الـدول الإفريقيـة «الأنجلوفونية» والهند من خلال مجموعـة دول «الكومنولث»، ولذلـك فهو يرى أن جزءًا مـن التأثير المصرى فى القارة الإفريقية يمكن أن يأخذ طريقه عبر «نيودلهى» فضلاً عن الطرق المباشـرة التى تربط مصر بشـقيقاتها فى القارة الإفريقية، والدكتور «بطرس غالى» له رؤية فاحصة فى المسـرح السياسـى الإفريقـى بالذات وعلى السـاحة الممتدة مـن أعماق القارة إلـى القاهرة فالفضاء الإفريقـى ارتبط بالدكتور «غالى» أكاديميًا وسياسـيًا ودبلوماسـيًا، فهو يؤمن بأن القارة الإفريقية هى مجال حيوى طبيعى لنا وشـراكة إنسانية ممتدة عبر التاريخ، ولقد لعب هو شخصيًا دورًا كبيرًا فى تعظيم الدور المصرى فى قارته الأم، وأشهد أنه قد حذرنى من احتمال خسارة فادحة لمصر فى موضوع مونديال ٢٠١٠م، كما أنه تشكك أيضًا فى إمكانية حصول مصر على قرار إفريقى بأن تكون «القاهرة» هى عاصمة برلمان الاتحاد بسبب تأخر الدبلوماسية المصرية حينذاك فى التوقيع على اتفاقية ذلك البرلمان، وأشهد أن حدس العالِم الجليل كان صحيحًا فى المرتين.

ثـالـثًـا: عندمـا امتد الحديث بنا مع الأصدقاء الهنود فى دار السـفير بالقاهرة فى حضور نخبـة من مثقفى مصر ومفكريها أثـرت مع المبعوث الهندى ما يبدو أن الهند قد أصبحـت طرفًا فيه، وهـو المحور الذى يربطها بجنـوب إفريقيا والبرازيل بديلاً

عـن المحور التاريخى الذى ربط «نيودلهـى» «بالقاهرة» و«بلجراد» فى تلك الأيام الخوالـى، التى مـلأت فيها حركة عدم الانحياز بزعامة «نهـرو» و«عبد الناصر» و«تيتو» فراغًا دوليًا فى سنوات الحرب الباردة. ولقد كانت روح المبعوث الهندى وأفـكاره قريبة مـن روح وأفكار تلك السـنوات التى رحلت مع سـتينيات القرن الماضى، فهو يتسـاءل عما يمكن أن تفعله الهند لخدمة التسـوية السلمية للصراع العربى الإسرائيلى؟ وأسلوب دفع العلاقات المصرية – الهندية لتعود إلى زخمها القديـم؟ عندئـذ تذكرت الدكتور بطرس غالـى الذى ظل يراهن دائمًا – أسـتاذًا ووزيـرًا وموظفًـا دوليًـا رفيعًا – على القـوى الصاعدة فى آسـيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، بالإضافة إلى جذوره الفكرية الأوربية التى جعلته فى كثير من الأحيان غير محسـوب على الضفـة الغربية من الأطلنطى، وصنعت بينـه وبين الولايات المتحدة الأمريكية حساسـيات انتهت بإبعاده عن موقعه، برغم أنه كان شخصية قوية تحاول أن تجعل لدور الأمين العام مسـاحة معقولة من الحركة مع سـيل من المبادرات المتجددة على الصعيدين السياسـى والدبلوماسـى وتحريك قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة على امتداد خريطة العالم.

.. ذلك هو «بطرس بطرس غالى» المصرى حتى النخاع، الوطنى من الأعماق، المهموم بمصر فى كل المناسـبات، والذى يحمل وطنه على كاهله فى كافة المحافل والمؤتمرات، إنه «بطرس غالى» ابن الفجالة الذى كان عضوًا فى مجلس الشـعب المصرى ونائبًا لرئيس الوزراء، وهو أيضًا «بطرس غالى» الذى تعرض لحملات ظالمة وهجمات شرسـة لأسـباب لا تتصـل بـه ولكنه ظل دائمًا ذلك الإفريقى المصرى الذكى الذى لا تغيب رؤيته أبدًا. وما زلت أذكر أن محطة الإذاعة البريطانية عندما قدمته يوم انتخابه أمينا عامًا للأمم المتحدة قالـت: إنه «بطرس غالى».. إفريقى ولكنه غير أسـود، عربى ولكنه غير مسـلم، مصرى ولكنه غير فقير!

هكذا كانت الطعنات توجه إلى ذلك الأسـتاذ الشـامخ وهو يبدو كالطود الأشـم الذى لا تؤثـر فيه الريـاح العاتية ولا الأنواء الكاسـحة، والدكتور «بطرس غالـى» الذى ترأس المجلس القومى لحقوق الإنسـان بالإضافة إلى رئاسـته لمنظمات دولية أخرى ذات طابع سياسـى إنسـانى مثل منظمة (الجنوب) بعد أن كان أمينًا عامًا لـ«الفرانكفونية» يتخذ من

«باريس» مقـرًا ومن القاهرة مسـتقرًا، وقد اقترحت عليـه أن يتواجد فى مصر كل عام فى فترة الشـتاء ما بين عيد ميلاده وعيد ميلاد السيد المسيح أى أن يكون فى مصر من الرابع عشر من نوفمبر إلى السابع من يناير كل عام. إنه «بطرس بطرس غالى» سليل عائلة قبطية عريقة ونجم دولى مرموق نعتز به ونفاخر، ونسـتمع إلى وصاياه وننصت، ونؤمن بحكمته ونستفيد، وأعتز أنا شخصيًا بأننى أشاركه يوم المولد برغم خلاف السنين.

❑❑❑

obeikandl.com

«محمد على» بعد قرنين

يتواكب عام ٢٠٠٥م مع ذكرى مرور قرنين كاملين على وصول «محمد على» إلى حكم مصر بالإرادة الشعبية، يوم أن ألبسه علماء الأزهر والأعيان رداء الحكم واختاروه واليًا على مصر، فى إشارة واضحة إلى التعبير عن الإرادة المصرية فى اختيار الحاكم لأول مرة بعد أن استيقظت الروح الوطنية على صوت مدافع «نابليون بونابرت» قبل ذلك بسنوات قليلة، ولا شك أن «محمد على» يمثل علامة فارقة فى تاريخ مصر حيث تبدأ معه عملية التحديث، ويرتبط به ميلاد مصر المعاصرة التى تعايشت مع الصراعات الدولية وساهمت فى الأحداث الإقليمية وأصبحت قوة فاعلة فى جنوب المتوسط والشام والحجاز والسودان وشرق إفريقيا.

لقد أسعدنى كثيرًا أن المشروع القومى للترجمة الذى يشرف عليه المجلس الأعلى للثقافة المصرية قد أصدر ترجمة رائعة لكتاب الدكتورة «عفاف لطفى السيد مارسو» بعنوان «مصر فى عهد محمد على»، وهى من أسرة أستاذ الجيل «أحمد لطفى السيد»، كما أنها أستاذة ذائعة الصيت فى مجال دراستها، فهى الآن أستاذ تاريخ الشرق الأوسط فى جامعة كاليفورنيا فى الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن أمضت حقبة من تاريخها الأكاديمى فى المملكة المتحدة، وقد قام بترجمة الكتاب السفير «عبد السميع زين الدين» وراجعه السفير الدكتور «السيد شلبى»، ويضم الكتاب بين دفتيه فصولاً رائعة ما أحوجنا لقراءتها ومتابعة أحداثها وتحليل نتائجها بعد قرنين من الزمان من ميلاد مصر الحديثة.

ولقد شد انتباهى ذلك الدهاء السياسى الذى تميز به الرجل الألبانى القادم من «ثغر قولة» الواقع حينذاك فى «مقدونيا» حيث ولد فى العام نفسه الذى ولد فيه «نابليون» حسبما تشير بعض الكتابات، ودعونا الآن نتأمل كيف كان «محمد على» يحاول تربية أولاده!.. ففى رسالة بعث بها إلى ابنه «سعيد» الذى كان يميل إلى البدانة بسبب الإسراف فى الطعام – وهو الذى أصبح بعد ذلك واليًا على مصر – عندما ألحقه ملازمًا فى البحرية ووضعه تحت رئاسة أمير البحر «ماتوش» باشا وطلب منه أن يعامله فوق ظهر السفينة بمثل ما يعامل أى ملازم آخر ودون معاملة خاصة، وقد كتب «محمد على» إلى

ابنه رسالة وردت فى الكتاب المشار إليه يقول فيها: «هل تذكر أننى قلت لك إن ملك إنجلترا قد خدم في البحرية برتبة ملازم، وتدرج فى الرتب مثل كل الضباط الآخرين حتى أصبح «أدميرالاً»، وبعد ذلك بقليل أصبح ملكًا، فطالما كنت على ظهر سفينة فتذكر أنك لست إلا مجرد ملازم، وعليك أن تقوم بالمهام التى تكلف بها، وأن تتعلم فنون البحر وعلومه وأن تطيع رؤساءك من الضباط، لقد أرسلتك إلى البحرية على أمل أن تصبح منارة للأسرة، ولقد وصلت إلى أسماعى شائعات مفادها أنك لا تقف انتباهًا لرؤسائك وأن «ماتوش» باشا لا يجلس فى حضرتك حتى تأذن له، يا ولدى لقد أرسلتك إلى البحرية طبقًا للتقليد البريطانى وطالما أنت هناك فعليك أن تتصرف كما ينبغى للملازم أن يتصرف، فأنت لست سوى ضابط صغير على سفينة ويجب أن تعامل كذلك». كما أرسل إليه ذات مرة خطابًا آخر يؤنبه فيه لأنه يخالط النوعيات السيئة من الناس.. والغريب فى الأمر أن «محمد على» الذى ظل أميًا حتى سن السابعة والأربعين كانت رسالته الدائمة إلى أبنائه «تعلموا تعلموا»، وكان يتابع بدقة الكتب التى يقرأونها والدروس التى حفظوها وما يجب أن يفعلوه فى المستقبل، لذلك ليس غريبًا أن يتمكن ذلك الرجل من وضع لبنات الدولة الحديثة فى مصر لأنه كان يؤمن بالتعليم طريقًا للاستنارة وسبيلاً للتحرر العقلى والفكرى وقيام مصر المستقلة.

إنه «محمد على» الذى ارتبط اسمه بأكبر امبراطورية مصرية فى العصر الحديث، وهو الرجل الذى اتسم بالحصافة واكتمال الرؤية والقدرة على استشراف المستقبل، كما بذل جهودًا عمرانية فى كافة المجالات، فى الزراعة والرى، فى التعليم والبعثات، فى التنظيم والصحة، فى الأمن والاستقرار، فقد أراد الرجل أن يستقل بمصر عن السلطنة العثمانية، فكان بحاجة إلى جيش قوى ومثل هذا الجيش يحتاج إلى سلاح حديث والسلاح يحتاج إلى تصنيع حربى وغير حربى تقف وراءه تكنولوجيا عصره، وهى لا تتحقق دون تعليم متقدم وهو الذى يحتاج بدوره إلى بعثات فى الخارج، تلك كانت التداعيات التى جعلت «محمد على» قادرًا على الوصول إلى تصور شامل لشكل مصر فى ذلك الوقت. ويهمنا هنا بعد قرنين من الزمان أن نحيى ذكرى ذلك الرجل الذى غير وجه الحياة فى الشرق الأوسط، وجعله قوة فاعلة فى العلاقات الدولية منذ مطلع القرن التاسع عشر، ولنا أن نورد على هذه التجربة الكبرى عددًا من الملاحظات نوجزها فيما يلى:

أولاً: إن قيام الدولة العصرية الحديثة لابد أن تقف وراءه إرادة واعية ذات رؤية شاملة، ولا يمكن أن يتحقق بالنظرات الجزئية أو الأفكار المتناثرة ولكنه يحتاج إلى عقلية جماعية قادرة على امتصاص الحقائق وتحويلها إلى قرارات للمستقبل الذى يستمر ويتواصل دون انقطاع أو توقف، ولقد كان «محمد على» نموذجًا فريدًا فى ذلك.

ثانيًا: إن الحديث المتكرر عن أن مؤسس حكم الأسرة العلوية إنما كان يطمح فقط إلى تحقيق مصالحه الشخصية وتحويل مصر إلى ضيعة يحكمها هو وأولاده أمر مردود عليه، فالفصل بين الأهداف الشخصية والغايات الوطنية يبدو أحيانًا فصلاً نظريًا بحتًا، ولا نستطيع الآن بعد مضى قرنين من الزمان على احتفال القلعة بتنصيب «محمد على» أن نتحدث فقط عن أطماعه – وقد كانت كثيرة – متناسين الخدمات الجليلة التى قدمها لمصر، والتى ليس أقلها «القناطر الخيرية» وليس أكثرها المكانة الدولية التى صنعها لمصر، مدركين فى الوقت ذاته أنه هو أيضًا «محمد على» صاحب «مذبحة القلعة»، وهو أيضًا الذى غدر بالحركة الوطنية ورموزها بعد فترة قصيرة من توليته حكم البلاد.

ثالثًا: إننى ممن يعتقدون أن حكم الأسرة العلوية لم تكن نتائجه سلبية فى مجملها، ففيها «محمد على» الكبير المؤسس وصانع الإمبراطورية التى قلصتها «معاهدة لندن» عام ١٨٤٠م، وفيها «إبراهيم باشا» أبو العسكرية المصرية، والذى دانت له إمبراطورية المشرق فحكم الشام تسع سنوات بدءًا من عام ١٨٣١م بعد مغامرات فى الجزيرة العربية لصالح «الباب العالى»، فى وقت كانت فيه حدود الحكم المصرى تبدأ من منابع النيل وتنتهى على مشارف هضبة «الأناضول»، وفيها «سعيد باشا» أيضًا الذى يسميه المؤرخون «صديق الفلاح» لأنه هو صاحب «اللائحة السعيدية»، وهى الأسرة التى أنجبت «إسماعيل المفترى عليه» والذى حاول أن يجعل من مصر قطعة من أوربا فأغرقها فى الديون، كما أن الخديو «عباس حلمى» قد أبدى تعاطفًا فى بعض فترات حكمه مع الحركة الوطنية المصرية، فى محاولة لتصحيح أخطاء أبيه «محمد توفيق» الذى جلب الاحتلال البريطانى للبلاد، كذلك فإننا نرى أن عصر «فؤاد» بكل جهامته المعروفة هو عصر تطوير التعليم وقيام المؤسسات الثقافية الأدبية والفنية، وهو عصر ميلاد الجمعيات العلمية ونضوج المجتمع المدنى.

رابعًا: إن تاريخ الأسـرة العلوية الذى نحتفل هذا العام بالمئوية الثانية لوصول مؤسسـها إلى حكم مصر يجب أن نتناوله بصورة شاملة تناقش الإيجابيات والسلبيات، فلا يجب أن نتوقف عند حدود القول إنها أسـرة أجنبية كرسـت الإقطاع فى الريف ووزعت «الأبعاديات» وتجاهلت أحيانًا الروح الوطنية، بل يجب أن نشـير أيضًا إلـى دورها فى تحديث مصر وتطوير شـكل الحكم والنهـوض بالمجتمع المصرى حتى قامت الثورة عام ١٩٥٢م فى محاولة لتعديل الأوضاع وتصحيح المسار.

خامسًا: إن «محمد على» تحديدًا – ودون أولاده وأحفاده – يمثل حجر الزاوية فى الانتقال من العصر المملوكى المضطرب والحكم العثمانى المباشر، للدخول فى كيان الدولة العصريـة المسـتقلة صاحبة الدور الفاعل فـى المتغيرات الدوليـة والإقليمية مع النصف الأول من القرن التاسع عشر.

.. لقد أردت من هذه الملاحظات أن أعطى المناسـبة قدرها وأن أسجل «لمحمد على» حق الاحتفاء به بعد مائتى عام من توليه، معترفًا بأفضاله وفى الوقت نفسه مدركًا لخطاياه مؤكـدًا أنه هو الحاكم الذى خرج بالدولة مـن عباءة الدين وحده إلى مظلة الوطن والقومية أيضًا، كما أن له من المواقف الشـهيرة ما يجعله نموذجًا للذهاء السياسـى والرؤية الثاقبة مـع الرغبة فى الإصلاح والتغيير، إنه بحق «محمد على» واضع الأسـس التاريخية لمصر الحديثة.

❑❑❑

إمام الإصلاح.. مئوية الرحيل

كلما ترددت كلمة الإصلاح تذكرت الإمام «محمد عبده» فهو رائد الإصلاح الدينى والاجتماعى فى تاريخنا الحديث، إليه تنتسب الرؤية الواضحة، وبه يرتبط الفهم العميق لعلاقة الإسلام بالآخر، إنه الإمام المجتهد الذى جمع بين الثقافتين الإسلامية والأوربية فأصبح نتاجًا لحضارة الشرق والغرب فى آن واحد، إنه الإمام الذى تميز بالانفتاح وأدرك مبكرًا أن الثقافات تتواصل وأن الحضارات تتكامل، فكان مثالاً رفيعًا لرجل الدين الإسلامى الذى نفتقده الآن، لقد جمع الإمام «محمد عبده» بين رصانة التراث ومرونة الحداثة وأقام شبكة قوية من العلاقات الفكرية والأكاديمية مع أبرز شخصيات عصره؛ فكانت مراسلاته مع الأديب الروسى الشهير «تولستوى» شاهدًا على تفتحه المبكر واستنارته الشاملة.

ونحن إذ نحتفل هذا العام بمضى قرن كامل على رحيل الإمام العظيم الذى شغل منصب الإفتاء ولم يكن يومًا شيخًا للجامع الأزهر، ومع ذلك حمل على كاهله مسئولية إصلاح الأزهر الشريف والنهوض به وربطه بحياة عصره، وعندما عاش فى «باريس» لبضع سنوات مصدرًا مع «الأفغانى» «العروة الوثقى» لاستنهاض همم المسلمين وتنقية الإسلام من الشوائب التى علقت به مع إجراء مصالحة واعية بين أصحاب الديانات، أليس هو القائل: (لقد وجدت فى فرنسا إسلامًا بغير مسلمين، بينما تركت فى بلادى مسلمين بغير إسلام)؟!.. فلقد أدهشه صدق الآخر وأمانته مع نفسه ومع غيره حتى استكشف الإمام ببصيرته الجوانب المتميزة فى حضارة الغرب، ولم يقف منها موقف العداء بل تفاعل معها فى ندية وذكاء لكى يكمل الحلقة المتينة التى بدأها الشيخ «رفاعة رافع الطهطاوى»، وحتى يكتمل «العقد الفريد» من رموز الإصلاح والتنوير التى انطلقت من مصر لتشع على العالمين العربى والإسلامى.

إن «فلاح البحيرة» ابن قرية «محلة نصر» مركز «شبراخيت» قد ترك بصمة فى تاريخنا الحديث ثقافيًا ودينيًا وسياسيًا، كما خاض المعارك الضارية دفاعًا عن وجهة نظره وإيمانًا بما اقتنع به وعاش من أجله، وظل يطوف بقاع العالم الإسلامى مع رفيقه «الأفغانى» للدعوة إلى الإصلاح والحرية وإعمال العقل والاعتماد على الدلائل العصرية لإثبات الألوهية

وتقوية الإيمان ومقاومة الإلحاد والرد على «الدهريين»، كما أن الإمام قد شغف بالدراسات المقارنة للأديان السماوية وأبلى فيها بلاءً حسنًا وظل داعية للحوار والاتصال والتعايش المشترك.. إنه «محمد عبده» الذى دعم «العرابيين» وناصر الحركة الوطنية المصرية وربط بين نهضة الأمة وحركة التنوير، ولعله يكون من المناسب مع الذكرى المئوية لرحيل الإمام المصلح أن نرصد الملاحظات التالية:

أولاً: إن نموذج الإمام «محمد عبده» فريد من نوعه فهو نسيج وحده؛ إذ إن ذلك الأزهرى المستنير قد خرج على السياق الجامد لكى يكون شعلة مضيئة تهدى معاصريه وتابعيه، بدءًا من «الأفغانى» مرورًا «بالكواكبى» و«شكيب أرسلان» وصولاً إلى صاحب المنار «محمد رشيد رضا»، لذلك كان طبيعيًا أن يكون الاحتفاء بالإمام العبقرى غير قاصر على مصر وحدها، فله فى الشام مكانة وفى الغرب منزلة لكن مصر كانت هى المستقر الأخير والمقام الدائم.

ثانيًا: إن ظهور «الإمام «محمد عبده» فى وقت كان الأزهر يواجه فيه محنة التخلف ونزعة العزلة هو المصدر الحقيقى للاعتزاز والفخر وتأكيد الهوية، فقد ظهر الرجل فى فترة انحطاط ارتبطت بهزيمة «عرابى» ودخول البريطانيين وبداية الاحتلال، ولكنه ظل محتفظًا بتوازنه قادرًا على صياغة خطاب دينى اجتماعى سياسى ترك بصمة فى تاريخ الحركة الفكرية فى مصر الحديثة.

ثالثًا: يجسد الإمام العلاقة المعروفة بين المفكر والسلطان، فهو نموذج مستقل لا يمكن تصنيفه فى الزحام مع غيره لذلك تظل سيرته موضع اهتمام واحترام دائمين، وسوف يظل علامة مضيئة فى الفكر السياسى والإصلاح الدينى واليقظة الوطنية، ولقد كانت علاقته بأسرة «محمد على» وحكامها الذين عاصرهم تتصف بالاستقلالية والتمسك بالمبدأ فى مواجهة كل خديو عاصره أو احتك به.

رابعًا: إذا كانت بعض الشكوك قد أحاطت بشخصية «الأفغانى» ودوافعه، وحتى لو تمشينا مع رأى المفكر المصرى الراحل د. «لويس عوض» من احتمال أن يكون «الأفغانى» إيرانى الأصل مرتبطًا بالمخابرات البريطانية، فإن الإمام المصرى «محمد عبده» يملك صفحة ناصعة البياض تتسم بالشفافية بما فى ذلك ما تردد عن علاقته «بالحركة الماسونية» وارتياده لمحافلها، وقد كانت تلك الحركة تضم صفوة العقول المتميزة فى عصره.

خامسًا: إن الإمام المجتهد الذى حاول أن يصلح من شأن الأزهر وأن يقتحم المؤسسة الدينية بفكر مستنير ورؤية جديدة، يبدو الآن ـ أكثر من أى وقت مضى ـ قدوة لما يجب أن يكون عليه رجل الدين، ولعل ذلك يذكرنا بأهمية العودة إلى نظام الابتعاث بحيث يتمكن الداعية الإسلامى من الاحتكاك بثقافة أخرى وينفتح على معارف مختلفة ويحتك بعقليات متميزة. فقد خرج الإمام من مصر وهو يحمل شهادة العالمية الأزهرية لكى يفتح حوارًا موضوعيًا عميقًا مع مفكرى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، حتى أصبحت كتاباته ومراسلاته سجلاً للحياة الفكرية فى تلك الفترة، كما اعتمد على الأدلة العقلية ولم يقف عند حدود الأدلة النقلية فى ردوده على دعاوى المستشرقين والمعنيين بدراسة الإسلام ومقارنة الأديان.

.. هذه ملاحظات استوحيناها من الذكرى المئوية لرحيل الإمام «محمد عبده» حيث كانت الحركة الوطنية المصرية فى مرحلة مخاض مبكر، فهى التى خرجت من الحركة العرابية لتتهيأ للثورة الشعبية عام ١٩١٩م، ولا شك أن عددًا من رواد الوطنية المصرية ودعاة الاستقلال قد تأثروا بفكر الإمام وروحه بدءًا من «مصطفى كامل» وصولاً إلى «سعد زغلول».. ويهمنى هنا أن أسجل على تاريخ الإمام أنه كان نموذجًا إصلاحيًا نفتقده اليوم وندرك أهميته حيث يبدو الإصلاح حاجة ملحة وقضية حاكمة فى هذا الظرف الإنسانى العصيب، ولعل أهم ما يميز عقلية الإمام هو أنه قد اعتمد الاجتهاد سبيلاً للمعرفة وفتح بابه على مصراعيه إعلاءً لكلمة العقل وتقديسًا لمفهوم الحرية، وإذا كان منطق رواد الإصلاح الدينى والثقافى من بعده قد دفعهم لأن يسلكوا طريقًا صداميًا مع الأزهر مثلما فعل «طه حسين»، فإن دعوة الإمام وأسلوبه يتميزان بالحكمة والهدوء والقدرة على الإقناع والاحتواء مع درجة عالية من الانفتاح دون تفريط فى ثوابت الدين وأركان الإسلام. لقد احترم الرجل الشريعة لأنها تنزيل إلهى ولكنه ناقش الفقه باعتباره صناعة بشرية نتفق معها أو نختلف، وإذا كان المؤرخ المصرى الشهير «عبد الرحمن الجبرتى» قد أدهشته سلوكيات الفرنسيين أثناء الحملة على مصر فإن «رفاعة الطهطاوى» عندما كتب عن إقامته فى فرنسا كان مدفوعًا بالإعجاب الخفى والانبهار الصامت بالحضارة الغربية المسيحية، وهو ما أظهرته أيضًا كتابات الإمام «محمد عبده» وتعليقاته سواءً فى كتبه أو فى صحفه أو فيما تحدث به فى المناسبات المختلفة.

وإنى انتهز هذه المناسبة لأطلب من الأزهر الشريف أن يجعل من مئوية الإمام الراحل نقطة انطلاق يخرج بها من عزلته ويفتح أمام دعاته وطلابه آفاقًا واسعة من المعارف العصرية والرؤى الرحبة والمفاهيم الصحيحة، ولتكن ذكرى الإمام بداية صحوة حقيقية وحركة إصلاح شاملة فى المجتمعات الإسلامية، نتخلص بها من فكر «الزندقة» وغبار القرون وسنوات الهوان، وهذه نقطة تقودنا أيضًا إلى تأكيد أن شعار الإصلاح شعار مصرى رفعناه فى القرن التاسع عشر ولسنا بحاجة إلى من يعطينا دروسًا فيه مع القرن الحادى والعشرين، ولنتفق جميعًا على أن سيرة الإمام تجلب معها تلقائيًا مفهوم سيطرة العقل على حياة الإنسان مع التأكيد على أهمية الحرية وقيمتها المتزايدة.

.. تحية للإمام بتراثه الخالد وفكره الصامد ونظرته الثاقبة وآرائه الموضوعية، إنه بحق إمام المصلحين وقدوة رجال الدين، والشعلة التى انطفأت منذ مائة عام بعد أن أيقظت الضمائر وحركت الوجدان وأعلت من قيمة العقل ورسخت معنى الحرية.

❑❑❑

obeikandl.com

أوربا الجديدة.. اتحاد الديمقراطيات

كنت عائدًا من جولة أوربية عام ٢٠٠٧م تابعت فيها الأحداث فى تلك القارة المضيئة التى شـهدت منذ قرون «عصر النهضة» ثم ميـلاد الدولة الحديثة وارتبطت بقضايا التطور والإصلاح، وعرفت الصراعات الدينية والعرقية والسياسـية حتى استقرت فى النهاية على ضفاف نهر الحرية الذى تتدفق عبره أمواج الديمقراطية، لم تكن المسـيرة سـهلة ولم يكن الطريق ميسورًا، فما أكثر ما شهدته تلك القارة من حروب وما تناثر على أرضها من أشلاء ومـا غطاها من دماء، ولكنهـا بقيت فى النهاية تعبيرًا حيًا عن ضمير الإنسـانية وتراثها الحضارى فى آخر صوره، والأوربيون ليسوا بعيدين عنا فلقد عرفناهم وعرفونا عبر القرون، وجرى بيننا وبينهم احتكاك دائم لا يبدأ «بالأندلس» ولا ينتهى بـ«صقلية» ولا يتوقف عند حروب «الفرنجة» حول «بيت المقدس»، إنها علاقات حضارية وثيقة أسهمت فيها دول البحر المتوسـط – بضفتيه الشـمالية والجنوبية، حيث تطل عليهما قارات العالم القديم – إسـهامًا تاريخيًا مشـهودًا جعل منها مركز الثقل وبؤرة الانطلاق نحو التحديث والارتقاء، فيها ظهرت النظريات الكبرى من الماركسية إلى الداروينية إلى الفرويدية، وفيها اندلعت الثورات الكبرى وأهمها الثورة الفرنسـية بشـعاراتها العظيمة ومحتواها العميق، إنها أوربا التـى ما زالت تمثل الجانب الإنسـانى فى حضارة العصـر، فالولايات المتحدة الأمريكية تسـبقها بالتقدم التكنولوجى والتفوق الاقتصادى والقوة العسكرية، بل إن اليابان قد تتميز هـى الأخرى علـى كثير من دول القـارة الأوربية، ولكـن يظل فى النهايـة ذلك الحس الحضارى الذى ما زال يعطيها لونًا خاصًا ومذاقًا مختلفًا، فمنها انطلقت كواكب المفكرين وخرجـت قوافل العلماء، وتحـرك الجميع نحو التنوير والحداثة مـن أجل تحرير العقل واستقلال الإرادة وطرح أفكار جديدة، يبدأ ميلادها من حضارة الإغريق فى «دولة المدينة» حتى «منظومة الأطلنطى» المعاصرة بكل ما تشير إليه وتدل عليه.

لذلـك فإننى أظن أن أوربـا كانت دائمًا ملاذًا لدعاة الحريـة وطلاب الديمقراطية ممن ينتسـبون لحضارة العصر ورؤياه الباكرة، وعندما شـهدت أوربا حربين عالميتين فى القرن الماضى بالإضافة إلى الحركة الواسعة بعد ذلك والتى تمثلت فى ظهور دول إفريقية وآسيوية جديدة إيذانًا بنهاية العصر الاستعمارى والدخول بمنطق الندية فى علاقات دولية متكافئة أو هكذا كان يجب أن تكون، عندئذ اتجهت القارة الأوربية نحو التوحد وبناء كيان سياسى

متماسك قام على أسس طوعية وليس مجرد فورات عاطفية. وهنا قد يحسن بنا أن نرصد بعض الملاحظات المرتبطة بقضية الوحدة الأوربية وكيانها المتمثل فى اتحادها الذى بدأ بحركة الحديد والصلب، ثم انطلق من اتفاقية روما عام ١٩٥٧م ليبشر بميلاد أقوى اتحاد دولى عرفته البشرية فى العقود الأخيرة، وتتمثل أهم الملاحظات فيما يلى:

أولاً: إن أروع ما تقدمه التجربة الأوربية لنا أنها تمثل مسيرة حرة قامت على الرغبة الاختيارية ولم تكن مشروعًا جامدًا ملزمًا من بدايتها، لذلك عرفت الاستفتاءات حول السياسة النقدية والتعريفة الجمركية وتأشيرات الدخول وغيرها من الأبعاد العصرية للعلاقات الإقليمية فى إطارها الحديث.

ثانيًا: إن نتيجة الاستفتاء على الدستور الأوربى الموحد ورفض الشعبين الفرنسى والهولندى لذلك الدستور لا يمثل نقطة سلبية فى حياة الاتحاد أو طعنة ضد كيانه، ولكن يمثل فى النهاية درجة عالية من درجات الشفافية واحترام الإرادات والاعتماد على الإجراءات الديمقراطية فى كل الخطوات التى أدت لقيام ذلك الصرح الكبير المسمى بالاتحاد الأوربى.

ثالثًا: إن اهتمامنا بالاتحاد الأوربى لا ينبع فقط من الجوار الجغرافى أو التراث التاريخى وحدهما، ولكن هناك شبكة المصالح التى تربطنا بدول الاتحاد والتى تجعل للصراع العربى الإسرائيلى أهمية خاصة لدى أوربا الموحدة، فالترابط الأمنى واضح والشراكة الأورمتوسطية تمثل عاملاً جديدًا فى تزايد الاهتمام بذلك الصراع خصوصًا وأن «المسألة اليهودية» كانت أوربية الأصل، كما أن النزاع الإسرائيلى الفلسطينى بتطوراته المتلاحقة هو أيضًا نتاج لأدوار أوربية متتالية بدأت ببريطانيا ثم فرنسا حتى وصلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها الراعى الأساسى للدولة العبرية.

رابعًا: إن تطلع الملايين من شباب الشرق الأوسط لنموذج الحياة الغربية يشدهم بالضرورة إلى القارة الأوربية، لذلك أصبحت الهجرة غير المشروعة هاجسًا يسيطر على الاجتماعات المعنية بعملية «برشلونة» التى أكملت عامها العاشر فى عام ٢٠٠٥م وظهرت لها ملحقات وتفريعات، ونحن نظن أن الهجرة الإفريقية والآسيوية إلى القارة الأوربية تبدو وكأنها محاولة للرد على الظاهرة الاستعمارية التى استندت على منطق الانتقال من الشمال إلى الجنوب بدعوى التنوير والتحضر.

خامسًا: إننا نقول لأصدقائنا فى أوربا أثناء لقاءاتنا بهم على كافة المستويات: إن نظرية «صراع الحضارات» تنهار تمامًا أمام تاريخ العلاقات بين الحضارتين العربية الإسلامية والأوربية المسيحية، كما أن فكر «العولمة» يستند هو الآخر إلى انسياب حركة رؤوس الأموال والخدمات والأفكار، ويجب أن يتضمن انتقال الأفراد أيضًا. وبذلك فإننا نؤكد من جديد أن الفكر الغربى الصحيح يدرك طبيعة العلاقة الوثيقة والارتباط المتين بين أوربا والشرق الأوسط.

.. هذه ملاحظات أردنا منها أن يقف القارئ أمام الحقائق المرتبطة بعالم اليوم لأنها تضع أوربا فى مكانها الصحيح، وتجعل من دعمها مبررًا لتجاوز ما قلناه والاتجاه نحو ما لم نقله، بقى أن أشير إلى الأوضاع العامة من النواحى السياسية و الاقتصادية والثقافية فى دول القارة الأوربية؛ إذ إن توسيع الاتحاد يبدو للبعض خصوصًا فى الدول الأوربية الغربية كما لو أن دخول دول شرق أوربا هو جذب للقارة إلى الخلف، لذلك يجب الاعتراف بالسرعات المتفاوتة داخل إطار الاتحاد. ونحن نرى فى النموذج الأوربى نمطًا يستحق المحاكاة على صعيد العمل العربى المشترك، خصوصًا وأن الظروف تبدو متشابهة على نحو يسمح بالتداخل والاندماج. فالعربى لا يشعر بالاغتراب فى المدن الأوربية بالقدر نفسه الذى قد يشعر به فى المدن الأمريكية، مثلاً مدينة مثل «لندن» تبدو لى شخصيًا وكأنها «أم المدائن»، ذلك أننى نشأت علميًا بها وتطورت دراسيًا فيها، وذلك يعنى أن الحواجز لا تنجح والضغوط لا تستمر إنما تبقى الدوافع الذاتية التى تخلق الرابطة بين الإنسان وأخيه الإنسان، بغض النظر عن الحدود الجغرافية أو الأصول العرقية أو الاختلافات الدينية، فالإنسان هو الإنسان فى كل زمان ومكان، وتبقى أوربا بعد ذلك – فى كثير من مواقفها – نموذجًا للاعتدال والقدرة على الفهم والرغبة المرنة فى اقتحام المواقف المختلفة.. إنها أوربا شريكتنا فى العالم القديم ومصدر التنوير فى العالم المعاصر.

□□□

الإرهاب داء العصر

تناثرت أشلاء الأبرياء واتسعت بقع الدماء ذات يوم على أرض مدينة «شرم الشيخ»، وبدأت مصر الصامدة تواجه جرائم الإرهاب الذى عانت منه كثيرًا مثلما حدث للعاصمة البريطانية التى كنت أعيش فيها مع مطلع السبعينيات من القرن الماضى حيث كانت الدنيا مختلفة؛ الأمن يسود أرجاء المدينة برغم بعض التفجيرات المحدودة التى كان يقوم بها جيش التحرير الأيرلندى ومن بينها تفجير برج لندن الشهير، ولم يكن تعبير الإرهاب مستخدمًا حتى عندما بدأت المطارات إجراءات الأمن وتفتيش الركاب وحقائبهم لمواجهة ظاهرة خطف الطائرات التى كانت قد بدأت فى الانتشار بفعل بعض المنظمات الفلسطينية المتشددة، ولكن ظاهرة العنف العشوائى ازدادت بعد ذلك واكتسبت أبعادًا معقدة تطرح تساؤلات حول مشروعية استهداف الآمنين وترويع المدنيين وخلق العقبات، بدءًا من الحصول على التأشيرات وصولاً إلى إجراءات المطارات على نحو تضاءل معه حجم حرية الأفراد، والذى يهمنى فى هذه المناسبة هو أن أفتح باب الحوار مع كل من يهمه الأمر بالإجابة عن السؤال الأساسى فى هذا السياق، وهو الذى يدور حول حق صاحب القضية – أية قضية – فى اتخاذ وسائل إرهابية للحصول على حقه المفقود، ولعلى أستأذن القارئ هنا فى عملية عصف ذهنى قصير تقوم على النقاط التالية:

أولاً: إن مشروعية الهدف لا تبرر استخدام الوسائل المرفوضة إنسانيًا. فالتعميم فى التعامل مع الطرف الآخر هو فى حد ذاته جريمة من نوع جديد لأنها تتخذ من الغاية المقبولة ذريعة لاستخدام وسائل مرفوضة، أى إنها لا تقترب فقط من الطرح «المكيافيللى» بل تتجاوز ذلك إلى ما تمارسه من عنف وما تسقطه من ضحايا.

ثانيًا: إن الإرهاب قد ولد فى ظل غياب تكافؤ القوى؛ فالقوة الكاسحة أمام القوة المحدودة تدفع الأخيرة إلى تبنى أساليب خفية تجعلها تمارس رد الفعل فى الظلام وبطريقة عشوائية. فالإرهاب فى حقيقته – وبغض النظر عن الدوافع والغايات – هو سلاح الضعفاء ووسيلة المقهورين، وأنا لا أقول ذلك تعاطفًا معه بل تصويرًا حقيقيًا للمعادلة المضطربة بين من يملكون القوة ومن يطالبون بالحق أو يتوهمون ذلك.

ثالثًا: إن الإرهاب ليس ظاهرة جديدة ولكنه ظاهرة قديمة قدم الحياة والإنسان، عرفته المجتمعات البشرية منذ العصور الأولى عندما كان العدوان على النفس وسلب الممتلكات ظاهرة همجية سبقت الحضارات وسمحت لشريعة الغاب ومنطق القوة أن تكون لهما السيادة دون غيرهما، كذلك فإن تاريخ الحضارات والديانات قد عرف الظواهر الإرهابية في مراحل مختلفة من تطوره. فالإرهاب بإيجاز هو عدوان عشوائى على الأرواح والممتلكات، وهو أيضًا عملية استهداف طائشة تسلب الأمن وتنشر الرعب.

رابعًا: إن الإرهاب قد بدأ يغتال استقرار الأمم وأمن الشعوب حتى لم يعد في مقدور أحد أن يقبل الغاية إذا كان الإرهاب وسيلة تحقيقها، ولقد ظلم هذا الخلط أصحاب القضايا المشروعة في عصرنا ووضعها أمام تحديات بغير حدود، فالقضية العادلة تعتمد على وسائل قانونية وأساليب مقبولة.

خامسًا: إن معيار عدالة القضية يضيع في زحام نوعية المقاومة، وفي هذه المناسبة فإنني أذكر أنني قلت في إحدى المحاضرات العامة منذ سنوات: لماذا يلوم الغرب الفلسطينين عندما يقومون بعمليات استشهادية بينما مارس الفرنسيون حق المقاومة الوطنية ضد «النازى» بكافة الوسائل أثناء الحرب العالمية الثانية؟! وأذكر أن سفير فرنسا السابق بالقاهرة قد طلب مقابلتي لكي يقول: إن المقاومة الفرنسية لم تقتل مدنيًا ولم تصب طفلة في «سوبر ماركت» أو عجوزًا في حافلة عامة.. فالخلاصة إذا في باب شرعية المقاومة هي تجنب إصابة المدنيين لأن ذلك يعتبر جريمة حرب في وقت الحرب، ويسمى إرهابًا في وقت السلم.

.. ويبقى السؤال بعد هذه الملاحظات مطروحًا ومؤداه: هل من حق حركات التحرير الوطني أن تسلك من الطرق وأن تستخدم من الوسائل ما يلفت النظر إلى قضاياها العادلة وغاياتها النبيلة وأهدافها القومية؟! هل يصبح من حق المقاومة الوطنية أن تخطف طائرة ركاب مدنية وتروع من فيها في ظل ظروف مأساوية تكررت كثيرًا؟! وهل يصبح من حق تنظيم «القاعدة» أن يفجر قطارات «لندن» لكي ينبه إلى وجوده ويقدم بالعنف العشوائى وجهة نظره؟! وبأى حق تقتل جماعة مسلحة في العراق رئيس بعثة دولة عربية مسلمة شقيقة في ظل تبريرات عبثية وتحت مظلة إجرامية؟! وبأى منطق يضرب الإرهاب «شرم الشيخ» مدينة السلام حاصدًا الأعناق والأرزاق؟!

لقد بلغ السيل الزبى وتعقدت الحياة وتاهت المصالح فى ظل فوضى الإرهاب الكئيب الذى يطل على العالم بوجهه القبيح بين الحين والآخر لا يفرق بين ثقافة أو ديانة أو جنسية، فلننظر حولنا ونرى كيف أصبحت الإجراءات الأمنية قيدًا على حرية الانتقال، فالعربى والمسلم هما محل شك مبدئى إلى أن يثبت العكس. كما أصبح خلع الملابس فى المطارات إجراءً معتادًا ورفض طلب التأشيرات تصرفًا متكررًا، مع أن الإرهاب الإجرامى قد ولد فى أحضان الاضطهاد والاستبداد وغيبة العدالة فى العلاقات بين الدول، فهو يبدو فى النهاية كرد فعل لمظالم لحقت ببعض الشعوب وأصابت عددًا من الأمم، وأصحاب هذا التيار لا يبحثون عن مبرر للإرهاب ولكنهم يربطون بين السبب والنتيجة، ويرون ما رآه السيد «تونى بلير» رئيس الوزراء البريطانى عندما صرح فى يوم الخميس الدامى حين وقعت تفجيرات «لندن» فقال: «إن الإجراءات الأمنية ليست هى الحل الوحيد للإرهاب، بل إن هناك أساليب سياسية أيضًا لمواجهة ذلك الخطر الداهم من خلال دراسة دوافعه ومواجهة أسبابه والتصدى لنتائجه». ولعلى اجتهد هنا فأضع أمام القارئ بعض الأساليب السياسية لعلاج داء العصر ومواجهة الإرهاب بخلاياه المركزية والعنقودية وأقدم هنا المحاور الثلاثة التالية:

- إن الفقر وتدنى مستوى المعيشة وغياب الرؤية ونقص الثقافة هى بيئة حاضنة لتفريخ الإرهابيين لا فى العالم الإسلامى وحده ولكن فى كل المناطق التى تعانى من ظروف مماثلة، وإذا كان الحلفاء قد فطنوا بعد الحرب العالمية الثانية إلى الأسباب الاقتصادية لها وخرجت الولايات المتحدة الأمريكية على العالم بمشروع «مارشال» لإنعاش أوربا، فإننا نظن أن للإرهاب أسبابا مشابهة لتلك التى تقف وراء الحروب، وندعو إلى التركيز على العامل الاقتصادى كأحد الدوافع للعمليات الإرهابية، وقد يقول قائل إن كثيرًا من الإرهابيين قد جاءوا من بلاد غنية ولم يكونوا من الفقراء، وهنا نقول إن الفقر قد لا يكون العامل الوحيد ولكنه أهم العوامل بالتأكيد.
- يعتبر التخلف السياسى واحدًا من مكونات المناخ الذى ينمو فيه الإرهاب ويزدهر، فغيبة الديمقراطية ونقص الحريات وضعف المشاركة السياسية وعدم تمثيل كل القوى الموجودة فى الشارع السياسى وحرمان بعضها من حقوقه السياسية، هى كلها عوامل ترتبط بالدوافع الحالية للظاهرة الإرهابية، وبهذه المناسبة فإننا نعتقد أن الإصلاح

السياسي والدستوري والاقتصادي والاجتماعي سوف يكون كفيلاً بمحاربة الظاهرة والقضاء عليها.

- يبقى المحور الأخير وقد يكون أهم المحاور على الإطلاق، وأعني به سياسة الكيل بمكيالين وازدواج المعايير في العلاقات الدولية وغيبة العدالة في التعامل مع المشكلات المزمنة، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية باعتبارها قضية المسلمين والعرب الأولى، لهذا فإن الغرب يتحمل جزءًا من مسئولية انتشار العمليات الإرهابية، وعليه أن يشارك بفاعلية في دفع الأساليب السياسية لمواجهتها من خلال العمل على تسوية النزاعات الدولية والمشكلات الإقليمية في توازن وعدالة.. ولذلك فإنني أظن مخلصًا أن تحول الموقف الغربي عمومًا والأمريكي خصوصًا عن الدعم المطلق لإسرائيل سوف يكون له تأثيره الجذري في ضرب الظاهرة الإرهابية وإيقاف نموها.

.. كانت هذه محاولة للتفكير بصوت عال في واحدة من أخطر مشكلاتنا، إنها تلك التي تمثل بحق داء العصر.

❑❑❑

obeikandl.com